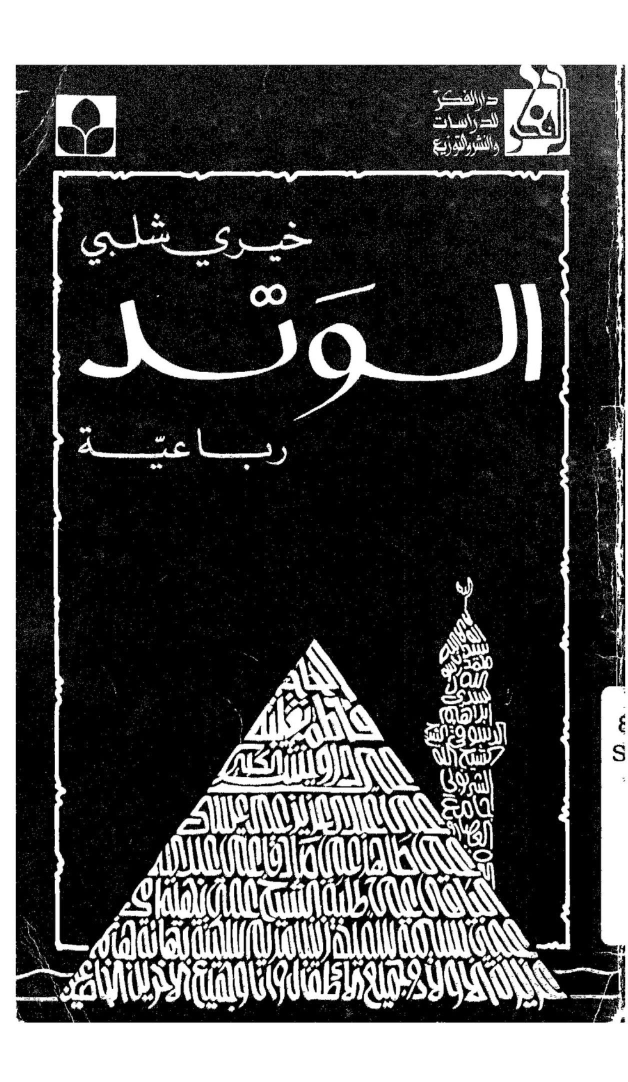

دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع
خيري شلبي
الوتد
رباعيّة

الـوتـد
رُبَاعيّـــة

الغلاف والخطوط: عماد حليم

الطبعة الأولى
القاهرة - ١٩٨٦

جميع الحقوق محفوظة



القاهرة - باريس

القاهرة: ش هشام لبيب - رقم ٤٢/٢٥
مدينة نصر - المنطقة الثامنة

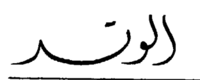


خيري شلبي

الوتد

رباعية




الوتـــد

كثيرا ما تمنى أبناء الدار موت الحاجه « تعلبه » . مع ذلك ما تكاد تلم بها وعكة صغيرة حتى تنقلب الدار كلها كأنما القيامة على وشك أن تقوم . يجيء حلاق الصحة وينصرف عددا من المرات ، ويحضر القريب والبعيد من الاقارب والاصهار والمعارف ، حتى لتصير الحارة كلها – وهى كلها بيوتنا – زريبة كبيرة تضيق بركائبهم التى يبدو عليها الحزن هى الاخرى ، اذ تقف مدلية الآذان عازفة عن الطعام والنهيق . وتتحول الدار الى مولد صغير تروح فيه النساء بقلق مصطنع ، ويظل « المنقد » مشتعلا وفوقه براض الشاى يغلى وينشر رائحته النفاذة .. ويفرح الاطفال الصغار ويطير النوم من عيونهم ..

فى العادة لا يطول مرض الحاجة « تعلبه » فكثيرا ما سلم الأولاد بموتها واستعدوا لتجهيز الكفن ، فاذا ما انشرخت السماء عن قرص الشمس وتسللت أشعته من الناروزة فى وسط الدهاليز ، فوجىء الجميع بصوتها يهمهم فى وسط الدار متمتما بالادعية فيما هى تتوضأ . على الفور تطقطق الاسرة داخل القاعات المغلقة وتتسابق نسوان الدار فى الخروج اليها . حينئذ لا تتحرك الحاجة « تعلبه » ، تظل منحنية على درجات السلم الطينى فى مدخل الكنيف تواصل الوضوء والهمهمة غير

عابئة بأحد . لكن نسوان الدار غير تائهات عنها ، فهن يتأكدن انها ترى بظهرها وتستطيع أن تعرف – دون ان تنظر – أى باب انفتح من أبواب القاعات وأيها مازال مغلقا ، وان هى الا ثوان معدودة حتى تستدير عائدة بأبريق الماء متوجهة الى قاعتها الخاصة . تسب بنت ام صفيحه وتلعن بنت ابى جوال والبنت التى لا تسمى ، فقاعتها حتى الان لم تفتح ، انها بنت عاهرة لا تريد أن تبرح حضن الولد وسوف تقضى عليه فى جمعة وتفقد الدار ولدا ، هو أيضا يجب أن يختشى على دمه ويضع فى عينيه حصوة ملح ، يجب أن يكون رجلا بحق وحقيق فيدفعها بعيدا عنه ويصحو ، وهذه البنت التى لم تنم الا بعد الفجر ، أليست تعرف أن اليوم يومها فى كنس الدار وهذا الولد الشملول أليس الدور عليه ليسرح بالبهائم ؟ وهذا الطويل الهايف ابو نبوت ولاسه هل نسى انه المكلف بانتظار المياه فى الترعة الشرقانة ؟ وهذا العيان بكيفه أليس وراءه ساقية سوف تدور فى الحوض الجديد ؟ .. فليدر عليكم الزمن جميعا ويدوخكم طول حياتكم ياابناء بطنى لتكن هذه نومتكم الاخيرة باذن الله .. هل هذا عدل ؟ هل هذه رجولة ؟ هل من طبعنا ان تركبنا نسوان الدار ؟ هل خلفت رجلا لينام فى حضن امرأة ؟ ان هى الا قحباء ابتليت بها الدار فى الزمن الاعمى ..

يكون يوما أسود على تلك التى تأخرت فى الصحو عن بقية النسوان ، ويضيع صوت الحاجه تعلبه فى زحام شديد من الكلمات لا يعرف أهل الدار ان كانت صلاة أم دعاء أم لعنات . البنت « سميحه » بنت ابراهيم الكاشف التى هى آخر زوجة دخلت هذه الدار لاصغر أعمامى « طلبه » هى الوحيدة التى تأكل عقل الحاجة ، دائما فى قدميها وتحت يديها ، دائما كانسة غاسلة صاعدة هابطة من الدار الى السطح تستقبل البهائم تترب الزريبة تحلبها ولا تكف عن الحركة ، حتى عند الغذاء أو العشاء تكون آخر من تأكل من نسوان الدار الثمانية الباقين ..

ذلك أن دارنا تضم تسع نساء غير الحاجة تعلبه . « زوجة عمى درويش » الذى من فرط قوته وكبر مقامه فى البلد يبدو أكبر سنا من أمه تعلبه . وزوجة « عمى عبد العزيز » الذى هو كبير أيضا وله عصا شهيرة مثل عصا « عمى درويش » وربما أفخم ، هو يلى فى الاهمية « عمى درويش » اذ يدخل فى اختصاصه كل ما يتعلق بشئون الزرع والقلع والحصاد والتذرية والتخزين . وزوجة « عمى عيسى » ، الذى يلى « عمى عبد العزيز » فى السن فقط ولا يليه فى الاهمية لهبوط طبعه وميله الى الاكل والسخرية وعمل نوع من الفصولات المضحكة فى خلق الله بقسوة كثيرا ما تترتب عنها نتائج سخيفة تنزعج لها الدار وتضطر « عمى درويش » لاستقبال كثير من الضيوف الغاضبين ، وتكلف الحاجة تعلبه حفنة من الشاى وهبرة من السكر المخزون دائما فى دولابها الغائص فى الحائط بجوار رأسها مباشرة ، ولذا فان « عمى عيسى » قد اختص بأمر واحد فقط هو الجمل ، هو المسئول عنه مسئولية تامة ، يؤكله وينيمه فى « المنخ » المعزول وحده جوار الزريبة أو يقص شعره أو ينقل به الاحمال للدار ولدور الاخرين ، وقد علم جمله كل صفاته ابتداء من تدخين اللفائف الى الضرب فجأة فى الارض براحة القدم حتى ليرتعد من حوله ، فاذا ما ارتعد أحد أو صرخ من المفاجأة صهلل الجمل كصاحبه تماما وضرب بالقلة التى هى لسانه حين يخرجه الى جانب فمه مبقللا بصوت ضاحك . وزوجة « عمى طاهر » ، القصير ، الذى يبدو أصفر بعلة وكرش لكنه ناشف كعود الحديد ، له اختصاصات كثيرة وغريبة ، هو المسئول عن الطحين ، يحمل القمح على بضع حمير الى الموردة على ترعة المشروع ليغسله ، ثم يعود فيشرف على نشره فى الشمس ، ثم يحمله الى ماكينة الطحين فيطحنه ويعود به ، هو المسئول كذلك عن خدمة « عمى درويش » وضيوفه الذين لا يفتأون يدخلون الدار ليل نهار صائحين : يارب ياساتر ، وما بين يارب ياساتر ومع السلامة يارجاله دقائق بل ثوان لان

المقبلين يصطدمون بالمنصرفين دون توقف ، « عمى طاهر » يستقبل ركائبهم فيلحقها بالزريبة ويعود بها إليهم عند الانصراف مرتبة البرادع ، هو كذلك صاحب السلطنه فى قعدة الشاى ، خبير بتوليع القوالح فى المنقد وإخفائها تحت الرماد مشتعلة لتبقى زمنا طويلا يسمح لعمى درويش فى أى لحظة أن يقول فى ثقة : رص كرسى دخان ياطاهر . وزوجة « عمى صادق » المسكينه ، منذ تزوجها لم يقدر لها أن تهنأ فى حضنه شهرا كاملا ، فشغلته طلوع الاسواق ينتقل إليها من بلد إلى بلد ويمكث هنا يومين وهنا ثلاثة يبيع ويشترى للدار أشياء كثيرة يستلقط جملا ، يتخلص من جاموسة غير مدرارة ، يبيع صوف الغنم وزبل الحمام ، لعودته فرحة لا مثيل لها ، ففى أخراجه أحرمة وبطاطين وأقمشة وطرح وبلغ وشباشب وهريسة وحب العزيز والحمص كثيرا ما يفاجأ القوم بأن أطفال الحارة كلهم — وهم أبناؤنا أيضا — قد أصبحوا يلبسون الطواقى الجديدة الملونة المزوقة فيعرفون أن « عمى صادق » قد عاد بليل . وزوجة « عمى عبد الباقى » الغنام ، الوحيد الذى يعرف كيف يتعامل مع الحاجة « تعلبه » يحب عادتين فى حياته إلى حد العشق : التوغل بأغنامه فى حقول بعيدة وشوارع وعره ، والذهاب إلى مولد سيدى إبراهيم الدسوقى كل عام أيا كانت الظروف والأوضاع ، يقضى هناك الاسبوع كله إذ هو درويش وأخذ العهد على يدى عمه فى الطريقة الشيخ الشرنوبى ، وهو خير من يذبح له ذبائحه ويسلخها ويطهيها ويأكل أطايبها عن طيب خاطر من الجميع ، والحاجة « تعلبه » لا تعطيه أو تعطى أحدا نقودا يصرفها فضلا عن أن يذهب بها إلى الموالد ، وهو يخرج لها لسانه فى السر ، إذ هى لا تعرف عدد الاغنام التى يشغى بها « المراح » الكبير جوار الدار الكبيرة ، فما أسهل أن يخبى عنزتين وثلاث حوالًا سرعان ما تكبر وسرعان ما يبيعها فى الطريق ليشترى الدخان اللف وخيوط الصوف التى يصنع منها الطواقى بالسنة المدببة فيما هو سائر خلف الاغنام ، ويدخر منها للمولد . وزوجة « عمى طلبه » أصغر الاعمام ، الذى لبس الجبة والقفطان والعمامة من

طفولته ودرس فى المعهد الدينى بدسوق أعواما طويلة من سنة أربعين حتى العام الثامن والأربعين من القرن العشرين كما يحلو له أن يردد ، عاد بعدها يحمل لقب الشيخ إلى الأبد ، يؤم الناس للصلاة فى مسجد « العصاروة » ويخطب من على منبره خطبة الجمعة ممسكا بالسيف الخشبى المعد لذلك ، فيبدو بشبابه المزهر ووجهه المتورد تحت العمامة المقلوظة ذات الطربوش القرمزى ، والشال الأبيض بياضا ناصعا بفعل شطارة سميحة بنت الكاشف زوجته التى تتباهى أمها كلما رأت شال الشيخ أن غسيل بنتها يشرب من فوقه العصفور ، يبدو الشيخ طلبه كنبى صغير يهز القوم بحدة نبراته وزلزلة صوته الجهورى المرن ينطق اللغة العربية بنفس اللهجة الفخيمة المقلوظة التى يقرأ بها آيات القرآن الكريم والأحاديث ، يتلون صوته صعودا وهبوطا ، خفة وشدة ، رقة وخشونة ، يؤنب ويبكت ، يسخر ويشمت ، يأسى ويبكى ، يغنى ويترنم ، والناس من حوله فى مصمصة شفاه وبسملة وصيحات الفاظ وسيل دموع ، أمين أمانة مطلقة ، لا يقبل إبداء ملاحظة ، لديه ميزان قبانى كان فى الأصل من ممتلكات العائلة إذ أن واردها كثير وصادرها كثير فلابد أن يكون لها ميزانها الخاص ، وقد آل أخيرا إلى عمى الشيخ « طلبه » ، ليس عن رغبة فى كسب فما أزهده ، بل من قبيل نشر الموازين الصحيحة بين الناس ، فهو على الأقل يثق فى صدق موازينه ويدمغها باستمرار ، يسجل صياحه عند الميزان عدد الشرط التى قد تزن درهما ، إن اشترى منك شيئا أعطاك ، فإن لم تجد فكه ورقة مالية مثلا فإنه يترك الشيء بإصرار لا يقبل الجدل ، وإن باعك شيئا فبالصلاة على النبى ، لا ينطق من فمه سعرا أبدا ، يدعوه أصحاب مخازن الحبوب من التجار الكبار والعائلات الكبيرة ليكيل لهم بمكياله قمحا أو ذرة أو شعيرا أو برسيما أو فولا ، فتراه يشيع المكيال مع ولد منا ، ثم يخطف ركعتين على الماشى بمناسبة مروره على المسجد ، إذ لا يصح أن يمر على مسجد دون أن يحييه ولو بالتطهر من أداء الحاجة ، ومادمت تطهرت

فالأحسن أن تتوضأ لتكون جاهزا على الدوام للصلاة ، ومادمت توضأت فلا بأس من ركعتين سنة الوضوء ، وقد يحل الظهر بعد خمس دقائق ولم يجىء المؤذن بعد ، فليبق ــ بالمره ــ يؤدى الأذان على باب المسجد ، ثم يتلكأ فى صلوات الصدقة ، فهذه صلاة ظهر بالنيابة عن أبيه الذى لم يكن يصلى ، وظهر آخر بالنيابة عن الحاجه تعلبه ، وثالث بالنيابة عن نفسه لظهر قادم قد لا يكون فيه حيا يرزق ، حتى إذا ما تجمع فى صحن المسجد عدد كبير يملأ العين بثلاثة صفوف أو أربعة إبتهج بهجة عظيمة وشرع يقيم الصلاة متقدما نحو الإيوان المجاور للمنبر ، فإذا ما انتهى من الصلاة ظل وقتا طويلا فى ختام كأنه يجدد العهد كل وقت بنفس الحماس ، ثم ينهض فى بسملة وحوقلة متأبطا شبشبه المتين الجديد باستمرار ، حيث يوسع له الاخرون فيرمى شبشبه على العتبة الخارجية فيصك الأرض فيعبر بقدمه الدرابزين الخشبى ثم يمضى إلى العمل الذى طلب له ، فما أن يصل حتى يخلع الجبة والقفطان والعمامة ويسلمها لأهل الدار ويرتدى جلبابا قديما وطاقية ، حيث يغوص فى جبال من الحبوب ممسكا بورقة وقلم من الكوبياء يرقب الكيال وهو يملأ المكيال ويعد ، وينبه إلى أشياء لا تصح ، وعند الزوائد والنواقص يقف فى صف المشترى على طول الخط ، خاصة إذا كان يشترى للأكل لا للمتاجرة .

ويحق لدارنا وللعكايشه كلهم أن يفخروا بعمى « الشيخ طلبه » الذى تكاد شهرته فى العب كله تنافس شهرة « عمى درويش » لولا أن العين لا تعلو على الحاجب . جميعا نحبه ونحترمه ونقف له إذا فات علينا ونحن جلوس فى أى مكان . ولم يكن يعيبه فى نظرنا سوى شىء واحد .. وقوفه دائما فى صف الحاجة « تعلبه » ، مظلومة أو ظالمة ، فهى دائما أبدا تصيح معلنة بأعلى صوت أنها مظلومة فى هذه الدار ولا أحد يريد أن يرحمها . وكل أعمامى يعرفون سر وقوفه فى صفها ، إذ هى التى تمده سرا بما يحتاجه من أموال ، ولها كل سنة حجة وفى كل

حجة يحظى هو بنصيب الاسد من هداياها ، من جبب وقفاطين وشيلان كشمير وشاهى وقطيفات وسبح وطرابيش حتى جعلت منظره ــ كما تقول ــ عليه القيمة مثله . وأعمامى لا يتورعون عن مصارحة « عمى طلبه » برأيهم فى موقفه ، ولكن بنفس الدرجة من الاحترام والتوقير كأن يقول له عمى عبد العزيز مثلا : « يعنى ياشيخ طلبه ما هو برضه انت مش ممكن حتجيب عليها الحق أبدا واحنا عارفين » . فيبتسم عمى الشيخ طلبه ويهز رأسه كأنه يقرأ القرآن فيما هو يخبط بردعة حماره الخاص : « لا دخل لهذا والله .. أعرف ما تفكرون فيه .. لكن لادخل لهذا أبدا » . ولواستمع « عمى درويش » لرده هذا لركز فيه عينيه النافذتين رافعا حاجبيه فى سخرية واستنكار مرددا من بين نواجذه : « اطلع من دول ياشيخ طلبه .. انت ؟ .. دا انت بلوه مسيحه .. دا انت الشيخطان طلبه » ولو نطق بهذه النكته أحد أيا كان مركزه فى البلدة لبصق « الشيخ طلبه » فى وجهه ولخرجت نبابيت العكايشه تطلب الثأر والدمار ، أما وقد قالها « عمى درويش » فإن عمى الشيخ يحمر وجهه خجلا ويعض على نواجذه ضاحكا بعمق ، بهيج حينئذ يراقبه « عمى درويش » ضاحكا بعمق هو الاخر ولكن دون صوت ، فقط ينتفش شاربه الكثيف وتتسع خدوده وتختفى عيناه تحت كرمشات باسمة ، ثم ما يلبث أن يقول معلقا : « يعنى انت من ناحية والست حرمك من ناحيه » ، فبمجرد أن يقول « حرمك » ترن فى الدار أصداء ضاحكة اطلقتها أصوات كثيرة مجهولة فى الدار ، لعلها أصداء الضحكة التى أطلقها نسوان الدار ذات يوم بعيد حين أبدى « عمى درويش » هذه الملاحظة لأول مرة ثم كتمنها فجأة حين صرخ فيهن أن يتحشمن ..

وكان يحلو لى أن أقلد « عمى درويش » فى كل شىء ، فأصيح صيحته وأرسم تكشيرته وأهز هزة عصاه وأشوح بيدى عند الحديث ، وأهب فى الأولاد بالعصا لأفض خناقتهم المفتعلة من قبيل اللعب . ويبدو

أننى كنت أقرب أبناء الدار كلهم شبها بعمى درويش فى الملامح والطول والصوت .. ولكن ليس هذا ما جعل « عمى درويش » يتحيز لى ويجلسنى بجواره ويشترى لى الحلوى كلما صادفته فى أحد الدكاكين . والمؤكد أن اصطفاء « عمى درويش » لى قد جلب على حب الدار كلها ، لدرجة أننى كنت الوحيد الذى لا يوقع عليه عقاب لأى خطأ أتاه رغم شقاوتى التى يضرب بها المثل فى نطاق عائلتنا التى تشغل حارة بأكملها . وهم رغم استيائهم من شقاوتى وتنديدهم بها أمام كل ضيف وفى كل لحظة صفاء فإنهم يذكرون ما يسمونه بنوادرى التى يتسامرون بها جميعا ، كل واحد يتفنن فى إعادة صياغتها بشكل خاص حتى يجلب المزيد من الضحك ، فلا أعرف إن كانوا يمتدحوننى أو يسلخوننى ، من ذلك مثلا أن جدى الكبير المرحوم فى أواخر أيامه كان شديدا على أهل الدار ، وقد نبه عليهم جميعا ألا يسهر الواحد منهم خارج الدار بعد صلاة العشاء وإن تأخر أحدهم — بما فيهم عمى طلبه — فسوف لن يبيت فى الدار فضلا عن انه « سيأكلها » بالنبوت وربما بالبلغة كل حسب قدره ، ثم صمت برهة واستدرك قائلا « هذا طبعا لا يشمل عمكم درويش » وكنا نظنها مجرد نكته ، والمؤكد أن جدى كان يعتبرها كذلك ، لكن « الحاجة تعلبه » حولتها إلى حقيقة ، وبواسطة « عمى درويش » تم تنفيذ كل ذلك بدقة . وقد حدث أن سرحت وراء فرح يجوب البلدة بطبوله وزموره ، وظللت ألف وراءه حتى ساعة متأخرة من الليل ، وعدت مع رهط من أبناء العائلة لا يشملهم قرار دارنا ، طرقت الباب بواسطة مقبض نحاس مثبت على البوابة ، وإذا بصوت جدى يصيح من خلف البوابة مباشرة حيث ينام على الدوام : « مين اللى بيخبط ؟ » ، وكان فى صوته عداء ورهبة ، فتذكرت قراره ، فارتعدت وتلعثمت ، فبقى صامتا لبرهة طويلة ، فطرقت من جديد ، فصاح بصوت جهورى : « مين » قلت بخوف ووجل : « أنا » قال بشخطه : « انت مين ؟ » ، قلت بسرعة وتلقائية مسرسعة : « أنا .. أنا .. أنا

أبويا درويش » ، فانفجرت ضحكة جدى داوية وفتح الباب قائلا : « طب ادخل ياأبوك درويش » فدفعت نفسى منسلًا ، فلسعنى بطرف العصا فوق مؤخرتى وهو يواصل الضحك ، وفى الصباح راح يحكى ما حدث كلما التقى أحدا ، ولم تمت هذه الحكاية أبدا ..

•

إلا أننى لم أكن أدرك أيامها أن سر عطفهم جميعا على وتمييزهم لى فى المعاملة هو أننى ابن لإحدى سيدات هذه الدار هى على التحديد « عمتى بهيه » فكيف تكون هى أمى وهى عمتى ؟ لقد كانت عمتى بهيه ــ أقصد أمى « بهيه » قد تزوجت من ابن عم لها مات فى عز شبابه بعد أن أنجبنى ، وكانت أمى تحبه حبا شديدا ، فانتقلت إلى دار أهلها رافضة الزواج من أحد حتى تربينى ، ولست أذكر بيت أبى فى دار مجاورة لدارنا ، فلقد تفتحت عيناى على هذه الدار المحتشدة بعشرات من الأطفال الصغار مثلى أو أكبر قليلا يرتعون وينادون أهل الدار كلهم بلقب واحد هو ياعمى أو ياعمتى ، فصرت مثلهم أنادى على أمى قائلا ياعمتى . وكانت « الحاجة فاطمه تعلبه » تحب أمى هذه وتصطحبها معها إلى الحجاز بين حجة وأخرى ، ومن كثرة ما حجت وتعهدت بالسلوك السوى بدا كأنها تكاد تقترب فى العمر من أمها « تعلبه » . أما عمتى الثانية « بسيمه » فهى آخر بطن أنجبتها الحاجة « تعلبه » منذ ما يقرب من خمسه وعشرين عاما أو يزيد ، وهى ــ عمتى بسيمة ــ بيضاء الوجه لكنها ذات طابع رجولى ، وقريبة الشبه بعمى درويش فى الطول والخشونة والصوت وأشياء كثيرة تبدو عظيمة بل وجميلة فى « عمى درويش » ، ولكنها فى « عمتى بسيمه » قد عطلتها عن الزواج كل هذه السنين ، ومع ذلك لا تريد أن تنزل عن كبريائها وتهتم بنفسها كأنثى .. وها هى ذى تراقب « سميحة » بنت الكاشف وهى تدعك قدمى « الحاجة تعلبه » بالمياه الساخنة المملحة ، وتتفرج على جسد « سميحه » وهو ينتفض ويتفجر أنوثة فتكاد تغازلها كما الرجال ..

النسوان جميعا يضحكن فى سرهن ولا يعلقن بكلمة على النشاط الذى تبديه « سميحه » تجاه حماتها ، لكن نظراتهن ـــ التى لم تحمل فى حياتها ودا إلا فى هذه اللحظة ـــ تقول أن المفعوصه لن تلبث أن تفقد حيويتها بعد زمن يقصر أو يطول مثلما فقدن ، وأنهن سوف يتفرجن حينما تنقلب عليها « الحاجة تعلبه » وتسقيها المر مثلما سقتهن ..

زينب ومريم وسكينة وبهانه وهانم وبهيه وعزيزه وبسيمه لا يردن الاعتراف بأن « سميحه » بنت الكاشف صبية لا تزال فى سن أبنائهن . وأنها زوجة « الشيخ طلبه » صاحب المعزة ، وأنها تبعا لهذا وذاك يجب أن تحظى بشىء من الحنية ولو من باب المجاملة على الأقل باعتبارها عروس جديده ، إنما هى فى نظرهن امرأة وكفى ، امرأة مثلهن ، ومثلهن خضعت لاختبارات قاسية وجارحة قبل أن تجىء إلى هذه الدار زوجة لأحد أبنائها ، حيث ذهبت « الحاجة فاطمه تعلبه » إلى بيت أهلها ، فعرتها من ثيابها وكشفت عليها جزءا جزءا ، واعترضت على بعض الأجزاء من عدم جمال أو تناسق ، ورضيت كما ترضى دائما على ذمة المقولة الشهيرة : « الحلو ما بيكملش » ، إلا أنها تكون قد اقتنعت أن النقص فى أجزاء يعوضه الفائض فى أجزاء أخرى ، وذهب وفد من « العكايشه » يقودهم « عمى درويش » فأكلوا من طبيخ يدها أكثر من مرة ، وقيل أنها لا تجيد تنظيف « أم الشلاتيت » ـــ أى أحشاء الذبائح من مصارين وعفشه وكرشه وما إلى ذلك ـــ فذهب وفد نسائى من عائلة « الثعالبه » وشاهدن سميحه وهى تنظف « أم الشلاتيت » أمامهن ، ومع ذلك ظلت « الحاجة تعلبه » تؤجل وتماطل حتى هام « الشيخ طلبه » وساق عليها « عمى درويش » فرضيت ، وجىء بالمفعوصة لتأكل بعقل الولية حلاوة .. إن فى هذا خطر ، فعن طريقها يركب الشيخ أكثر مما هو راكب ، إنه « طلبه » والأجر على الله ، ناعم ، مؤدب ، يشق الهدوم كلما صاحت أمه بآهة صغيرة ، ولابد أنه

يريدها تكتب الأرض باسمه قبل أن تموت ، أو لابد أنه يتصور أنه يمكن أن يمسك المصروف فى يده لكن لا .. إنه وزوجته يتعشمان عشم إبليس فى الجنة .

ينفرط عقد النسوان بعد أن يشبعن من الودودة أمام وسعاية الفرن فى « الدويرة » الملحقة بالدار منفصلة عنها متصلة بها . فى تلك اللحظة تكون « سميحه » قد بدأت تتلقى الشتائم نيابة عن مريم ـــ الكلبه بنت الكلب ـــ التى كان اليوم يومها فى شغل الدار ، ومن بين الأعمال التى ينبغى أن تؤديها يوم خدمتها دعك قدمى الحاجة تعلبه ساعة أو ساعتين فى مطلع النهار ..

ـــ أمال بنت أم صفيحة ما جاتش ليه عشان تدعك لى رجلى .. هما حيصدروكى فى كل حاجة ؟ .. ثم تتثاءب . فتقول « سميحه » وهى تخشى أن يفتضح كذبها :

ـــ لازم بتحنن البهايم .. أصل البهايم بتتعب فى الحليب الصبح ..

هنا تكون مريم قد تقرفصت فوق الأرض فاشخة وركيها فى لا مبالاة ابيحت لها بحكم عمرها الطويل فى دار العكايشه ، فهى زوجة أكبر الرجال ، وقد تهدل جسدها وانهد كيانها فى خدمة هذه الدار واعطائها عشرة من الولدان صبيانا وبنات . زحفت بإليتيها فوق الأرض ممسكة بالمقشة المصنوعة من قحف الجريد ، لكنها عند باب قاعة الحاجة تعلبه تتمهل وتستعيض بيديها عن المقشة فى كنس التراب حتى لا تصدر صوتا يكشف عن وجودها ، وهى تريد أن تسمع جيدا ، ولسوف تجعل نهار الحاجة أسود إذا لم تمسك لسانها عنها . أصاخت السمع جيدا فى اتجاه الباب . تقول « الحاجة تعلبه » ويدها لا تكف عن مشاغبة المسبحة :

ـــ زهقت والله يابنتى من هذه الولية .. أكثر من ثلاثين عام وهى

تناكفنى بلا فائده . آه لو لم تكن زوجة لأعز الرجال ..

البنت « سميحه » دائمة النظر فى فرجة الباب . لمحت خيال « مريم » متقرفصا يزحف على صدغ الباب ، وهو ما لم تفطن إليه « مريم » فغمزت « سميحه » بفمها للحاجة « تعلبه » مشيرة إلى الخيال ، فتأوهت « الحاجة تعلبه » بنبرة المرض العضال :

ـــ آه .. لم يعد أحد فى هذه الدار يرحمنى .. لقد تعبت وآن لى أن أستريح .

تحس « مريم » بشعور الانتصار ، تأخذها من قصيره وتبتعد شيئا فشيئا ، ثم لما تتأكد أن « الحاجة تعلبه » لن تأتى بسيرتها ثانية تلتقط المقشة وتعلن عن وجودها مؤجله كالعادة ثورتها إلى لحظة مناسبة ، صحيح أن هذه اللحظة المناسبة لم ولن تجىء أبدا ، ولكن ثمة شعور باقتراب الخلاص يرقد فى قعر بطنها كلما تقدمت صحة « الحاجة تعلبه » فى الوهن والمرض ، فمن غيرك يامريم يصلح بعدها لإدارة الدار ؟ وقد تقفز شخصية « عمتى بهيه » إلى ذهنها وقد تربعت على السرير بعد موت « تعلبه » ، وقد تطغى عليها صورة « عمى درويش » تعشمها فى سيادة على حسه مقبله ، على أنها فجأة تنفض المقشة فى الأرض بغضب مكتوم لاعنة العيشه واللى عايشينها ، ثم تستند على الحائط متقرفصة واضعة كفها على خدها ، ثم تنساب دموعها مختلطة بمخاطها .. فأعرف أنها يئست من الانتصار على « الحاجة تعلبه » يأسا نهائيا ، ذلك أن زوجها « عمى درويش » بجلالة قدره ، الذى ينحنى له أتخن جعيص فى البلد ، ولا يمر عليه راكب إلا وترجل حتى لو كان العمدة نفسه ، والذى على يديه تقام أعتى سرادقات الأفراح وأجل المآتم ، وبكلمة منه تنفض أعقد المشكلات ، هو نفسه ينحنى للحاجة تعلبه ويقبل يدها ويخاطبها بلهجة الطفل الصغير حين يقول : ياامه ، أما حين يجىء بسيرتها لدى الأخرين فإنه يقول : الحاجه .. فيعرف الجميع

إنه يقصد « الحاجه فاطمه تعلبه » ..

و « مريم » زوجة « عمى درويش » تمت الينا بصلة قربى وثيقة ، إذ هى من فرع « العكايشة » الذى تتكون منه بلدة كاملة على مسيرة ساعتين بالحمار من بلدتنا . وكثيرا ما نشب الخلاف بينها وبين « الحاجة تعلبه » أدى إلى الشروع فى الغضب والسفر إلى أهلها ، لكنها سرعان ما تهدأ بمجرد أن يشخط فيها « عمى درويش » ، أما إن طولت فى الكلام فإنه يصفعها بالكف على وجهها ، وإن تزربن فإنه ينهال عليها بقحف الجريد أو بعصاه إذا لم تحترم أمه وتكسر عينها أمامها ، فتذهب « مريم » إلى غرفتها محطمه ، لكنها فى الصباح تخرج من القاعة كشجرة جميز مغسولة بمياه المطر ، ولا أثر لما حدث عليها ، والمؤكد أن « عمى درويش » كان يسقيها فى الليل مفعولا سحريا يساعدها على الهدوء والخضوع .

« أما زينب » زوجة « عمى عبد العزيز » فإنها مهياصة كبيرة ، معاهم معاهم عليهم عليهم هى الأخرى قريبة لنا ومن نفس الحارة ، ربتها « تعلبه » على يديها من الصغر ، بل وخطبتها لعمى وهى طفلة غريرة ، فكانت بحكم اتصالها بالدار تفهم « الحاجه فاطمه تعلبه » حق الفهم ، فلا ترد عليها حين توبخها مهما كان التوبيخ جارحا صاعقا ، بل تقابل كل ذلك بالضحك الصافى حيث ينعقد الدم تحت خط المنديل أبو أويه وينزرد وجهها المستدير الغليظ الملامح ، ويتدفق صوتها المجلجل فيه بحة صوت العكايشه ، وينضح وجهها بطيبة قلبهم ، و « الحاجه تعلبه » تحب منها كلمة « ياامه » حينما تنطقها بصوتها الأنثوى الرنان رغم بحته ، فما أن تسمع هذه اللفظة منها حتى تسامحها فيما ترى أنه خطؤها ، تقول لها : « حاكم أنا عارفاكى تلمه ميأثرش فيكى كلام ولا كرباج حتى .. داهيه تسمك قليلة الحيا » . غير أن فى صوتها نبرة مميزة ، إذ انها حين تخاطب « زينب » — حتى ولو كانت تشتمها —

لا تنسى انها تخاطب واحدة من بنات العائلة ، فيحمل صوتها رنة خاصة تفصل بين الغضب والحنان ، بين الشتم المقذع والتحفظ ..

يطيب لـ « سكينة » زوجة « عمى عيسى » أن تتدخل على هذه الأرض الممهدة ، فإذ تحس أن غضب « الحاجه تعلبه » على قريبتها « زينب » سوف يصير إلى جد ، تبتسم « سكينة » وتنهض من غرفتها تتبختر فى وسط الدار كالأوزة ، تلم شعرها المنسابة جدائله تحت منديل مشغول بالفل والترتر ، يتضوع منها عطر صابون الوجه المخبأ دوما فى صندوقها الخاص ، تدخل بينهما دافعة « زينب » إلى بعيد دفعة حادة مليئة بالعشم قائلة من خلال وجهها الباسم على الدوام : « اختشى بقى وخلى عندك شوية من الأحمر » . زينب لا تزعل منها إذ هى خفيفة الدم جدا ، وبنت ناس مبسوطين فى وسط البلد ، وليست تحب الخناق أو الدس أو الوقيعة وان أحبت الودودة أمام الفرن ، لا أمل لها فى هذه الدنيا سوى أن تنجب ، ولدا أو بنتا كل عطية الله محبوبة مرغوبة ، يحمر وجهها كلما جاءت سيرة الخلف ، ينصحها نسوان الدار فى وسعاية الفرن بأنها يجب أن تذهب إلى الساحر فلان أو العرافه فلانة لترى لها رأيا فى مسألة الخلفة ، حينئذ يزداد وجهها احمرارا وخجلا ، ويلمع فى عينيها حزن عميق كاب ، ربما لإحساسها بأنها مجرد ضيفه على هذه الدار سوف يطلقها « عمى عيسى » إن عاجلا أو آجلا إما برغبته أو برغبتها فى سبيل الإنجاب ، ذلك أن « عمى عيسى » كثير الزواج ، فسكينه هذه هى زوجته الرابعة ، أما الثلاث الأوليات فقد طلقهن واحدة وراء الأخرى لأسباب غامضة تتحدد دائما فى الخلفة كسبب ظاهرى . وهو محظوظ جدا فى النساء ، فكل زوجاته كن من أجمل جميلات البلد ، وليس هناك أحد يتعرض للحسد بسبب النساء مثل « عمى عيسى » وهذا هو تفسيره الخاص لفشل زيجاته ، فالقر يخرب البيوت ياجدعان . يلمع الخبث فى عينى « عمتى بهيه » — أقصد أمى — وهن بارشات أمام الفرن بعد الخبيز — تريد أن تعرف منها

ما إذا كان « عمى عيسى » له فى النساء حقا فتستنزل اللعنات على زوجاته السابقات ، أم أنه عاجز فتلتمس لهن العذر وله الشفاء . تقول وهى تدارى ابتسامتها تحت طرحتها السوداء : « أنا طول الليل سامعه هبد ورزع فى القاعه » ــ ذلك أن قاعتنا مجاورة لقاعة « عمى عيسى » ــ فتنظر إليها سكينة نظرة ذات معنى يلمع فى عينيها ويجبرها على الخروج من الحزن إلى الابتسام الشفيف البهيج : « يعنى قصدك إيه ياعمتى ؟ » فتقول عمتى بهيه : « باقول يكون حط همه فيكى ونزل ضرب بدال ما يعمل حاجه تانيه ما هو شرز » . تهز سكينة كتفيها باسمه : « وحيضربنى ليه ؟ » تقول عمتى بسيمه وقد فهمت قصد أختها : « دى باين عليها مضروبه بصحيح خدودها مورمه أهه .. ولا دى باين عليها عضه » تقول « عمتى بهيه » فى خبث « هو بيضربك يابت » تقول « سكينه » بهزة من كتفيها : « أيوه بيضربنى » غيامة من الحزن تعبر عينى كل من « عمتى بهيه » و « عمتى بسيمه » ، سرعان ما تنقلب إلى لمعة حقد على « سكينه » ليس له سبب واضح ، لكن « سكينه » تستطرد وهى تتعثر فى خجلها : « أصل ياأختى تقوليش وحش وانطلق .. عايز كل ليله كل ليله .. لما هدنى » تلمع السعادة فى عينى « عمتى بهيه » و « عمتى بسيمه » ، ويلمع بعض الغيظ فى عيون الباقيات ، وتستطرد سكينه « أنا متهيألى النسوان بتتطلق منه عشان كده مش عشان الخلفه » ترد جوقة النساء كلها دفعة واحدة : « عجايب » فتستدرك سكينه : « بس والخلفه برضه .. مش عارفه لها سبب بصراحة .. يمكن العيب مننا كلنا » ترد « عمتى بهيه » فى بجاحه قويه : « جايز ما هى الدنيا مليانه عجايب » .

حينئذ ينطلق الصوت فجأة مدويا كالقنبلة الصاعقة : « لا اله إلا الله .. سيدنا محمد رسول الله » فيبصقن جميعا فى عبهن رغم أن « الحاجه تعلبه » تفاجئهن بهذه الصيحة من حين إلى حين فيهتز منها حتى السائرون فى الشارع العمومى ويردون الصيحة خلفها ولكن فى

بسبسة خاشعة متفائلة . ثم تكف أصواتهن عن اللغو ، وتنهض كل إلى عمل معروف لها سلفا ..

الوحيدة التى تضيق بانقطاع هذا الحديث هى « بهانة » زوجة « عمى طاهر » ، الرفيعة المسلوعة ، المربربة ، الشاحبة الوجه باستمرار شحوبا مثيرا للخيال ، الحريصة على دعك كعبيها بقطعة من الطوب الأحمر ، تترك نفسها دائما بلا شال أو طرحه كأنها لا تزال فتاة صغيرة رغم ما أنجبته من أولاد كثار مسمسمى الوجوه مثلها ، ذوى أحجام مخندقه وملامح غريبة بعض الشيء عن ملامح العكايشه ، وان حملت نفس الدماء ونفس الطبيعة الميالة لفرض السيطرة أو العراك بلا سبب ، ولا تفسير له فى نظر أهل البلدة إلا أنه من قبيل هبل العكايشه كما يقولون فى خلواتهم . و « بهانه » ولوعة بحديث النسوان عن الجنس ، وتدب فيها حيوية غريبة وتجرى الدماء تحت الشحوب ، ومن كثرة انفعالها لا تكف عن الحركة حتى وهى جالسة . يحبها الجميع من أعماق قلوبهن ، لكنهن يتناسين هذا الحب كلما تذكرن ان « الحاجه تعلبه » تعزها أكثر منهن ، ذلك أنها ــ بهانه ــ كالدبور ، ومثل زوجها منوطة بأعمال الخدمة العامة ، ليس بتكليف من أحد إنما هكذ درجت الأمور بالنسبة لها منذ تزوجت من « عمى طاهر » ، وهى بنت رجل كان تقيا ورعا يمت بصلة قربى « للحاجه تعلبه » ولذلك أعفيت من قسوة الاختبار وان لم تعف منه تماما ، كانت ترافق أباها على الدوام حتى عند طلوعه الحجاز إذ لم يكن قد انجب سواها ، وعند مروره على بيوت الاعيان ليقرأ رواتب السور القرآنية فى مكان ما من الدار يحدده له صاحبها . وعلى الرغم من أنها استحقت لقب الحاجه عدة مرات فإنها لم تحمله أبدا ، ربما لخوفها من أن يضفى عليها كبرا فى السن ، أو يقيدها فى حركتها ، أو يلزمها بالصلاة التى لا تجد لها وقتا أبدا ، لكنها كثيرا ما تستدر اللقب عند احتياجها له للدفاع عن كذبة أو خطأ أو شيء

اضطرت لنفيه عن نفسها ، حينئذ فقط تصيح بصوت يحاول جاهدا إخفاء نبرات الانوثة الصارخة فيه : « وحياة اللى زرته وحطيت إيدى على شباكه ما حصل .. مش عيب ؟ » . لا أحد يستطيع أن يشتمها أو يجرحها بكلمة لإنها لا تعطى لأحد فرصة لذلك ، فهى تقوم بعبء كبير دون تململ أو ضيق . فمن مهمتها مثلا تلصيق الجلة فى أقراص بعد جمعها من الزريبة والحارة ، ونقل أحمال الحمية من حطب ودريس وقش أرز وأعواد ذره ، حيث يبرك الجمل أمام الدار وينفك حمله ، ففى دقائق معدودة تكون قد نقلته ورتبته فوق السطح ، وغسيل ملابس « الحاجه تعلبه » وتطليع فراشها للشمس . وكل طيور الدار لا تعشق سواها ، ومن المألوف أن تكون سائرة فى وسط الدار ووراءها جوقة هائلة من الدجاج والأوز والبط والأرانب والرومى تطلق سمفونية من الأصوات يزداد ارتفاع ضجيجها كلما همت « بهانه » برفع يدها كأنما يتوقعون ان تبذر لهم الحب كالعادة ، ولذا فهى خبيرة بالطيور ، وبإمساك أى طائر فى لمح البصر ، خبيرة أيضا فى تزغيط البط أو الأوز المرشح للذبح فى المواسم والأعياد وأيام الأسواق باعتبارها أياما مفترجة ، إذ تصنع عجينه من الردة والشعير وبقايا الطعام تجعلها أصابع كالكفته تنشفها ثم تعود فتغمسها فى الماء وقد نيمت البطة تحت فخذها الذى يبدو فى هذه اللحظة أضخم وأجمل مما يبدو وهى واقفة أو سائرة ، ممسكة بعنق البطة فاتحة فمها لتحشر فيه الإصبع وراء الاخر وتضغط بأطراف أصابعها برفق على رقبة البطة ليتزحزح الإصبع ويسقط فى البطن ، وبين الإصبع والإصبع بعض قطرات مياه ..

حاول « عمى طاهر » مرة أن ينبه عليها بأنها بخفتها هذه وعدم تحشمها فى اللبس قد يطمع فيها الناس فيعاكسونها . فنهره « عمى درويش » بنظرة نارية لاسعة ، وأمسكته « الحاجه تعلبه » من اذنه وفركتها بقسوة وهى تزأر فيه :

ـــ لا أحد فى هذه البلدة كلها يجرؤ على معاكسة امرأة متزوجة من ابن الحاجه تعلبه وشقيق الحاج درويش .. اللهم إلا أن تكون هى التى تجلب المعاكسه .. وليس هذا ، الشر بره وبعيد ، من طبيعة بهانه .. انها خسارة فى عضمك .

فمن يومها لم يفتح فمه بملاحظة عليها . مع ذلك فحين تغضب منها « الحاجه تعلبه » لسبب من الأسباب فإنها تسبها صائحه :

ـــ آه يامره ياللى معندكيش خشا ولا وقار .. ياللى عمرك ما تعرفى الحشمه .. ياصفره يامسلوعه .. ياريتنى كنت صدغت وشك بالشبشب بدال ما ألبسك طرحة الفرح .

فحينئذ تقبع « بهانه » فى ركن من قاعتها تنتفض كعصفور بلله المطر ، ثم تمسح عن خديها دمعتين متطفلتين ، وتنهض صاعدة إلى السطح كأنما لتدفن حزنها فى شغل لا ينتهى .

حينئذ تتقدم « هانم » زوجة « عمى صادق » لتهدىء من غضب « الحاجه تعلبه » ذلك أن هانم أكثر نسوان الدار حبا لبهانه وفهما لشخصية الحاجه ، تريد أن تضرب عصفورين بحجر : تسكت الشتائم عن صديقتها وترضى مشاعر الحاجه : « روق دمك بس ياامه » تقولها « هانم » وهى تدخل القاعة ثم تجلس بجوار حماتها متسائله : « ايه بس اللى مزعلك ؟ » . يتضح أن الأمر فى غاية العجب : لقد أبلغتها « بهانه » أن طواجن اللبن فى الحاصل فوق السطح بلغت عشرة ، منها ستة من اللبن الرائب والباقى طازج ، فلما صعدت « تعلبه » لتتولى بنفسها الإشراف على عملية عزل القشدة عن الرائب وإعداد طريحتين أو ثلاث من خرط الجبن القريش وجدت عدد الطواجن تسعة فقط ، فتساءلت ، فزعمت « بهانه » أن الطاجن العاشر شربه الأولاد فى الصباح ، فاستدعت « تعلبه » كافة الأولاد ولفت بهم لتعرف بطريق غير مباشر إن كانوا قد شربوا فى الصباح لبنا أم أفطروا بالجبن فقط ،

فاتضح لها أن الأولاد لم يشربوا لبنا هذا الصباح ، فجنت « تعلبه » وطقست وسألت النسوان واحدة واحدة عن مصير طاجن اللبن الذى خرج من العدد المرصود . فشهدت « سميحه » بنت الكاشف أنها شاهدت الطاجن يندلق من « بهانه » غصبا عنها ، فلماذا تكذب عليها « بهانه » ؟ هل هى علمتها هذا ؟ هل الكذب من شيمة أهل هذه الدار ؟ وكيف بالله لمن زار النبى وملس على شباكه مثلها أن يكذب ؟ إنها ملعونه وسوف يقصم الله ظهرها بإذن الله . إن الحج ليس لعبه ، إنه عهد ، ولهذا فليس من الصواب أن يتجرأ عليه المفاعيص أمثالها ممن لا يفهمون عهد الله والرسول .

توافقها « هانم » على كل ما تقول ، مرددة مع كل هزة رأس : « طبعا ياست الحاجه طبعا » . فتعاجلها حماتها : « طابت وانهرت » ، ثم تشوح بيدها مستأنفه التسبيح بالمسبحة ، ثم تهدأ قليلا وتكور المسبحة فى حجرها كأنما تنتبه إلى وجود هانم لأول مرة ، تربت على كتفها : « ازيك يابنتى عامله إيه ؟ » فترد هانم : « بخير ياست الحاجه الحمد لله » . فتنبرى الحاجه ــ دون مناسبه ــ تحكى لها عن نساء عشن بعيدا عن أزواجهن سنوات طوالا فلم يفرطن فى عفتهن ، حكايات سمعتها بعد ذلك فى ألف ليله وليله وغيرها من المصادر الشفاهيه ، عن نساء حمين أنفسهن فكافأتهن السماء أعظم مكافأة بطلوع الحجاز والسعة فى الرزق والبركه فى الأولاد . فيقشعر بدن « هانم » وتردد : « اوعدنا يارب » ثم تندمج فى قراءة بعض آيات أغلب الظن أنها آية الكرسى ، ثم تملس على وجهها المستطيل الذى ينطق بالشوق والبراءة والاحساس بفقد شىء ما أو بتوقع شىء ما غير سار . وتعرف « الحاجه تعلبه » أن « هانم » مستمعة جيدة ، ربما كانت الوحيدة من بين نسوان الدار مستعدة للسمر والاستماع فى انتباه إلى ما لا نهاية ، دون أن تعترض على شىء أو تستوثق من صحة شىء . ثم

إنها ونيس لا مثيل له ، إذا طلب منها الحديث تحدثت عن أشياء لا رابط بينها لكنها مثيرة للاحساس بالنبل دافعة إلى الضحك مع ذلك ، عن عفريت قابلها ذات فجر كاذب وهى تملأ البلاص من الترعة فوقفت له صامدة مسلحة بآية الكرسى ، فتخاذل أمامها وصار يلاعبها ، فصاحت : « ياسليمان » فاختفى العفريت فى الحال ووجدت أمامها رجلا مقبلا يجرى نحوها صائحا : « مالك ياست فيه إيه » فضحكت قائلة إنها كانت تنادى سيدنا سليمان ، فقال لها أنه هو الأخر اسمه سليمان وقد جاءها منقذا .. فعرفت إنه سيدنا سليمان بنفسه ، والدليل على ذلك إنه ظل سائرا خلفها يحرسها حتى باب الدار وقال لها : « سلمى على الحاجه تعلبه والحاج درويش » فنظرت فلم تجده . وإذ يبدو عدم التصديق فى عيون النسوان تزأر فيهن « تعلبه » صائحه :

ــ ويخلق ما لا تعلمون .. لماذا لا يكون سيدنا سليمان .. وعلى كل حال ما دام قال لها سلمى لى على الحاجه وعلى درويش فإنه يكون سيدنا سليمان . هو بعينه . ما دام غير معروف بشخصه لهانم وما دامت لم تره من قبل ولا تعرف له شبها فى البلد .. إنه هو إذن .. إننى لا أكف عن ذكر الله وقراءة آياته ولابد أنه يعرف ذلك ويرسل لى السلام من أجله .

فعليهن جميعا أن يصدقن فى الحال ما قالت ، حتى « مريم » تهز رأسها صائحة من وسط الدار قبالتهن : « كلك خير وبركه ياحاجه » . فتعوج الحاجه رأسها تجاه الباب صائحه فى غير ود وإن ظهر فى صوتها الود المبالغ فيه :

ــ غصبن عنك يابت .. إياك يطمر فيكم .. لولايا كانت الدنيا اتفرجت عليكم ..

وتتأهب « مريم » لتفتح فمها بأى رد قد يخطر على بالها ، لكن « هانم » التى تكون على طرف المصطبة فى مواجهتها تغمز لها بشفتيها أن

تصمت وتقصر الشر ، وتربت بكفها على صدرها بما يعنى : عشان خاطرى . فتغلق « مريم » فمها ، وتدك المشط العظم المربع فى شعرها الكثيف المتلبد وتشده مرات ومرات فى عنف ليتساقط القمل فى حجرها المفرود ، ثم تسارع بظفر إبهامها فتسحق القمل المتناثر على أسنان المشط فيطرقع فى تتابع سريع مدرب ، ثم تجمع ما فى حجرها وتدعه يتسلق المشط لتسحقه كذلك فى عنف شديد ..

ـــ خدتى بالك بقى يابنتى ..

هكذا تستأنف « تعلبه » حكاياتها كأن شيئا لم يكن . فتقول هانم : « أيوه ياست الحاجه » . فتحكى لها عن رجال تجار مثل ابنها صادق يجوبون الأسواق ويتحملون الشقاء ، وكيف انتهزت زوجاتهم فرصة غيابهم فسرن على حل شعرهن فكانت فضائحهن مضرب الأمثال ، وكيف عوض الله الرجال الشقيانين نساء اطهارا وابكارا فى حين منيت السابقات بسوء العاقبه . تؤمن « هانم » على صدق كلام حماتها مبدية دهشتها من مثل هاتيك النساء نجسات الذيل ناقصات الدين . فهانم ، كما هو معروف ، هى الابنة الوحيدة ـــ على ذكور كثار ـــ لأحد الخياطين فى البلدة ، يفصل الثياب لعلية القوم ، ولما كان المثل الشعبى يقول : « أجرة الخياط تحت مؤخرته » ، ومعناه أنه يجلس فوق ثياب الزبائن بعد حياكتها ليكويها ومن ثم لن تخرج من تحت مؤخرته إلا بعد دفع أجرته ، فإنه قد جمع ثروة كبيرة وصار بدوره من الاعيان ، وحمى نفسه بحج بيت الله حتى تزداد ثقة الناس فيه ، وهو قصير القامة نظيف الثياب على الدوام ، يرتدى فوق الجلباب قطنية من الشاهى اللامع ، ويسمح له بزيارة البيوت والاختلاط بالنساء لتفصيل ثياب العرائس ، ويقيس الأبدان بتحفظ شديد حتى لا تلامس أصابعه جسد المرأه متجنبا ما يمكن أن يبدو بذيئا من حركات القياس ، يبدأ كل شيء ببسم الله الرحمن الرحيم سابلا جفنيه على عينيه مستعيذا بالله من الشيطان

الرجيم قبل البسملة وبعدها ، ويحك موضع القياس فى جبينه ليلوثه بالعرق كعلامة يقص عندها ، وهو بارع فى خرط الثياب وحبكها وجعلها كالكعكة منضبطة فوق صاحبها . وقد أنجب سبعة رجال وفتاة واحدة هى « هانم » ، فعمل على تحفيظها القرآن وتعليمها الصلاة . ومنذ طفولتها حتى صباها وهو يحرص على اصطحابها معه عند زيارته لأى عروس فى بيتها لأخذ المقاس أو للتأكد من صحته لكى يدرأ عن نفسه الشبهات ويحرس نفسه بها خوفا من غواية الشيطان . وكانت فى صحبته يوم جاء ليفصل ثياب « زينب » زوجة « عمى عبد العزيز » حينما كانت عروسا ، فسلطت عليها « تعلبه » عيونها ، وتعقبتها بعد ذلك ، سألت عليها جميع الدور التى دخلتها مع أبيها فأطنب الجميع فى ذكر محاسنها واعتدال سلوكها وحسن أخلاقها : « محفضه قطه مغمضه » ولم تكتف بذلك ، فأرسلت من بنات العكايشه ومن نساء الثعالبه من يتجسس ويتسقط أخبارها الخفية ، فجاءت الأخباريات كلها تفيد بأن « هانم » لا ضريب لها بين البنات ، فأرسلت الحاجه وفدا من نساء الثعالبه بينهن احدى الماشطات كشفن بصنعة لطافه على جسد الفتاه ، عن طريق تسليط بنات فى مثل سنها يتعرين أمام بعضهن البعض ويغرين بعضهن البعض بالاستحمام سوية حتى ينكشف المستور من الجسد .. فجاء كل ذلك مبهجا للخاطر . فذهبت « الحاجه تعلبه » بنفسها كزائرة تحمل بعض الهدايا لأبيها مفصل ثياب العائلة ، ثم طلبت البنت للجلوس بجوارها ، وصارت تتحسسها قطعة قطعة بحجة إنها ترقيها من عين الحسود ، فلما اطمأنت إلى سلامة اللحم وحلاوته وطهارته شرعت تلمح إلى المستقبل الهنيىء الذى ينتظر البنية بإذن الله ، ثم انصرفت ليجيء الدور على « عمى درويش » ليقوم بمهمته ..

من ليس له كبير يشترى له كبيرا ، هكذا يقول المثل الشائع على ألسنة الناس فى بلدتنا و « عمى درويش » ليس فقط كبيرنا بل هو كبير

مشاع ، يشتريه معظم الناس ليكون كبيرا لهم ، فلا يخيب ظنهم أبدا ، ليس يشترونه بالنقود لا سمح الله ، إنما يشترونه بالود والصداقة والثقة والاحترام والتوقير . فالعريس الذى يذهب « عمى درويش » ليخطب له لن تتعثر خطوبته مطلقا ولن تكون ثمة مشكلة على الاطلاق ، ذلك أن « عمى درويش » لديه قدرة عظيمة على إقناع الأطراف كلها بأن معرفة الناس هى الكنز الحقيقى الذى لا يدانيه كنز ، والناس لبعضهم ، والرسول قال ، وسيدنا عمر بن الخطاب فعل ، والامام الشافعى فسر ، وهكذا يتم على يديه تجنيب أى مشاكل مادية أو خلافات إنسانية أو عداوات قديمة . ان الناس فى صحبة « عمى درويش » يحسون بأنهم كبراء حقا ، بأنهم ذوو قامات مرتفعة . فأن يطرق « عمى درويش » بابك لأى سبب من الأسباب فهذا شرف كبير ، فما بالك لو طلب الدخول ، وما فرحتك لو كان زائرك لوقت ، يخرج من خزين الدار كل مدخر ، تخرج الفناجين الصينى والاطباق والصوانى المحفوظه فى لفائف ، وتصيح الطيور الذبيحة فى وسط الدار معلنة عظيم فرحتها بكونها تذبح على شرفه . وسواء كنت من علية القوم أم من الانفار الشغيله فانه يناديك بياسى فلان ، أو ياعم ، أو يامولانا ، أو يافضيلة الشيخ . وصوته جهورى منطلق عظيم الثقة ، والكلمات تتصاعد مهذبة مليئة بالخبرات والأحاسيس والمعانى لا تجد بينها لفظا واحدا نابيا وفصحى عالية المقام من آيات وأحاديث وأقوال صحابة ومريدين وأقطاب تصوف ، وأحيانا قصيدة شعر لابراهيم الدسوقى أو موال أو رباعية لابن عروس . وان هى إلا دقائق حتى تصيبك عدوى الثقة والاحترام فتحس أنك رجل وانك ذو قيمة عالية ، ويجيئك احساس مفاجىء بالغضب على من هزأوك ذات يوم أو استهانوا بشأنك ، تراك وقد نبذتهم وقررت الارتفاع عليهم ، ثم انك تجد نفسك فجأة على غير ما كنت تتصور نفسك ، فحيث يكون قد وقر فى ذهنك انك ضعيف الشأن لاتصلح لمجالسة الكبار ، إذا بك تكتشف انك بخير ، وانك يمكن

ان تكون ناضجا فى تصرفاتك وأقوالك ، وأول دليل تريد أن تقدمه لنفسك على ذلك هو النزول على رغبة « عمى درويش » والصدق معه فى الوعود وتنفيذ الاتفاقات مهما بدت صعبة مكلفة ، انك وقد اكتشفت رجولتك وعلو شأنك تراك مدفوعا إلى تدعيم ذلك حتى لا تسقط صريعا من شرفة عينى « عمى درويش » التى يرفع بها الرجال ويخفضهم عند اللزوم دون كثير كلام ، حقا ان معاشرة الكبار كبر ومعاشرة الصغار صغر ..

سحب « عمى درويش » جلبابه الكشمير الكحلى الغامق ذا الخطوط الرفيعة المبيضة قليلا ، فلبسه فوق الصديرى الشاهى ، ثم لبس المركوب البنى بدون جورب ، وسحب العباءة الجوخ المغسولة بمياه زمزم ، طرحها على كتفيه ، ووضع طاقيته الصوف المستطيلة فوق رأسه ثم تعمم فوقها بشال سمنى اللون شديد النظافة قادم من الحجاز ، وشبك كتينة الساعة فى عروة الصديرى ووضع الساعة فى جيبها الصغير تحت الأبط ، وسحب عصاه الشهيره التى لا تفارقه ، وتقدم خارجا من قاعته ، فكأن موكب الدنيا قد آذن بالتحرك ، وما إن يقبل طيفه أو خياله نحو مصطبة وسط الدار حتى ينهض الجالسون واقفين ، فيشير إليهم فيتفضلوا بالسير خلفه إلى الخلاء حيث ينتظم خطواتهم إيقاع من المهابة ، وهو موكب تعود كل أهل البلدة إن رآه أحدهم فى أى شارع استعد لرد التحية ودعا لهم أن يوفقهم الله فى مشوارهم حتى لو لم يكن يعرف ما هى طبيعة المشوار ..

وهكذا انتقلت « هانم » إلى دار العكايشه زوجة « لعمى صادق » ، تجلس معظم أيامها فى انتظار عودته من السفر ، فما تكاد تهنأ به ليلة أو ليلتين حتى يتأهب لسفر جديد ، فتودعه صابرة داعيه متمنية سلامة العودة .

كله كوم ، و « عزيزه » زوجة « عمى عبد الباقى » الغنام كوم

اخر . أحلى نسوان البلدة بلا منازع . أبدع خراط البنات فى خرطها على قالب مشدود لا يتهدل ولا ينبعج مهما حملت وولدت . بيضاء حمراء خضراء العينين مستديرة الوجه كالقمر ، فى صوتها لدغة تضاعف جرس حرف الراء . من حسن الحظ أن تزوج « عمى عبد الباقى » والدار فى عصر رخاء رغم ويلات الحرب العالمية الثانية ، حيث رمت الفدادين أقطانا وحبوبا بورك فيها . وعام ذاك افتتحت فى البلدة مستشفى كان أهل البلدة بزعامة « عمى درويش » قد جمعوا تبرعات لبنائها فجاءت شيئا مفرحا حقا ، وتربعت على مدخل البلدة بسورها الانيق الأبيض ووحداتها المتناثرة فى رشاقة تتصل بينها طرق مبلطة مزدانة بالزروع على الجانبين ، وحديقة صغيرة تحف بها . وجاء لها موظفون من الأغراب ، من بينهم الباشتومرجى ، الذى أتى بزوجه وأولاده وسكن فى دار مهجورة بشارع داير الناحية ، فعمرها وونسها ، ولحس عقول أهل البلدة كلهم بزوجه وبناته الثلاث ، السنايير اللاتى كن يرتدين الفساتين البندرية المخزقة القصيرة فى تحشم قليل ، ويمشين فى البلدة كأنهن يمشين فى المدينه ، وقد انشغل رجال البلدة شيوخا قبل الشباب بأمر البنات الثلاث ، وجعلوا من أنفسهم رقباء متطوعين ، وباحثين وراء سلوكهن وسمعتهن ، ففوجئوا بأن البنات الثلاث رغم هذا المظهر على درجة كبيرة من حسن التربية والصفاء والبراءة وحلاوة اللسان واستقطاب الحب . فكان أن نشأت مباراة حامية الوطيس بين شباب البلدة فى التقدم لخطوبتهن . ولكن « عمى عبد الباقى » لم ينم الليل شهورا طويلة بسبب « عزيزه » ، أقام الدار وأقعدها فلم تعيره « تعلبه » التفاتا فوقع فى عرض « عمى درويش » الذى راح يعمل على إقناع الحاجه ، فطلبت مهلة قصيرة ، فخاف « عمى عبد الباقى » من ضياع الفرصه ، فطمأنه « عمى درويش » بأنه هو الذى سيتولى خطوبة البنات الثلاث لمن يتقدم وسوف يعلن أن « عزيزه » محجوزة . ولم تكذب الحاجه خبرا . فبكرت من فورها بالتحرى عن اسم بلدة

الباشتومرجى الاصلية . وذات صباح ادعت وهى تنادى على « عمى طاهر » لتجهيز الركوبة إنها ذاهبة لزيارة سيدى إبراهيم الدسوقى شيء لله ياأبا العينين . ثم سافرت إلى بلدة الباشتومرجى . أما كيف تتعرف على اسرة الباشتومرجى وأهله وتعرف أسرارهم فان ذلك ميسور تماما بالنسبة « للحاجه تعلبه » ، فلديها موهبتها ، ذلك السر الغريب الخطير الذى تتمتع به دون نساء البلدة ، إذ هى تمارس نوعا غريبا جدا من الطب والعلاج . لديها « طاسة الخضه » وهى طاسة من نحاس قديم وقطعة زلط من جوار النبى ، تمتلىء الطاسة بالماء حول قطعة الزلط وتبقى فى مكان عال فى العراء تسمع الاذانات الثلاثة : المغرب والعشاء والفجر ، وعلى من تعرض للخضه ، أو صدمة الخوف ، أن يشرب هذا الماء على ريق النوم فى الصباح ليشفى بإذن الله . وهى تعير هذه الطاسة لكل من يطلبها دون أن تتقاضى أجرا ، لكنها تأخذ شيئا ثمينا على سبيل الرهن يسترده صاحبه عندما يرد الطاسه ..

لكن الموهبة الكبرى التى تتمتع بها « الحاجه تعلبه » انها تداوى وجع الاذان ووجع العينين . وما بين صلاة العصر وصلاة العشاء تزخر غرفتها بالزائرين القادمين من أطراف البلدة ومن بلاد مجاورة ، كل يشتكى من أذنيه أو عينيه . فإذا كنت تحس بوجع فى أذنيك فانها تتناول رأسك بين راحتيها وتنيمه على وركها بحيث تكون فتحة الاذن إلى أعلى ، وبجوارها زجاجة صغيرة بها محلول مركب من أصناف العطارة لا أحد يعرف ما هى على وجه التحديد . تفتح الزجاجة ، تملأ فمها برشفه ، ثم تضع شفتيها على أذنيك وتترك رشفة المحلول تنزل فى أذنيك ، ثم تعود فتشفطها إلى فمها ، ثم تدفعها من جديد إلى الأذن ، ثم تشفطها برفق ، تمتصها ، وهكذا عدة مرات حتى تغسل الأذن تماما ، وفى النهاية تبصق المحلول فى قصرية وتريها لك فإذا بك تجد كثيرا من الدود والوسخ الرمادى الغريب يتلوى زاحفا وسط المحلول ، فتشملك

فشعريره وتحس بشيء من الراحة يسرى فى أذنيك . ولقد أثار بعض المتشككين الخبثاء ــ منذ سنين طويله ــ إشاعة هامسة تقول إن « الحاجه تعلبه » تأخذ الرشفة من زجاجتها بدودها ثم تبصقها فى الأذن ثم تشفطها لتوهم الزبون أن الدود كان فى أذنيه ، ولهذا حاول بعض الزبائن فى تحفظ وأدب رؤية المحلول داخل الزجاجة ، فما كان من « الحاجه تعلبه » إلا أن ــ دلقت من الزجاجة مقدار رشفه فى فنجان صغير ثم عرضته لعين الزبون فظل يتمعن فيه طويلا فلا يجد ثمة دود أو أى شائبه ، فهز رأسه فى اقتناع تام . فأرادت أن تقطع دابر الشك من نفسه فأشارت له على فمها ، ثم فتحت فمها عن آخره فبدا كسرداب أهتم مخيف ، ثم بصقت على الأرض عدة مرات لتقنعه أن فمها يخلو تماما من أى شيء سوى اللعاب ، ثم ملأت فمها بنفس رشفة الفنجان وسربتها إلى أذن الزبون ومصمصت وبصقت فى قعر القصرية محلولا برغوة يتخلله دود صغير . من يومها لم يعد أحد يتشكك فيها ، ولم تكف هى عن فعل هذه الطقوس قبل علاج أى أحد حتى لو كان طفلا رضيعا ..

أما بالنسبة للعين فإنها تنظر فيها وتفتحها بأصبعيها وقد تعطيك تكحيلة من التوتياء أو الشنشم إن كان أمر الوجع بسيطا ، وتستطيع أن تنظر فى عين الشخص نظرة عابرة تقول له بعدها أن فى عينيه دودا ، فما عليه إلا أن يكف عن الانزعاج ويعطيها عينه ، فتقرب وجهها منه وتخرج لسانها الرفيع المدبب وتفتح جفن العين مسربة طرف لسانها تحت الجفن من أعلى ومن أسفل ، ثم تبصق على الأرض دودتين أو ثلاث ، ويحس صاحب العين بصفاء مفاجيء فى عينيه وعلى هذا فقد طبقت شهرتها الآفاق فى العب كله من أقصاه إلى أقصاه . ولما كانت مشهورة بأنها لا تتقاضى أجرا على هذا العمل الخيرى فإن الزبائن قد أغرقوها بالهدايا ، وبات من المعهود أن يجيء الزبون حاملا شيئا ملفوفا لا يسترده عند انصرافه ، ربما يكون قالب سكر أو باكو شاى أو رصة

من قطع الصابون النابلسى المفتخر ، وربما قطعة قماش ثمينه ، وترتفع قيمة الهدية إذا كان الزبون قادما من بلد بعيد فوق ركوبه ..

وكان « عمى طاهر » يمنى النفس بفسحة طيبه فى رحاب الدسوقى جاءته على الطبطاب كما قال له أعمامى يومها فى حسد . لكنه فوجىء بأن « الحاجه تعلبه » تطلب ولدا يعود بالركوبة من عند محطة البكاتوش . فلما ركبا القطار معا فوجىء بأنهما ذاهبان إلى محافظة غير محافظتهم وكانت المحافظة فى ذلك الوقت من أواخر الأربعينات تسمى المديرية . ومن قطار إلى قطار آخر نزلت فى إحدى المحطات يتبعها « عمى طاهر » كالأهبل فى الزفة . ثم استنظفت حمارا لدى أحد المكاريين المنتظرين على المحطة ، فركبته متجهة إلى بلدة الباشتومرجى ، و « عمى طاهر » يلهث خلفها مع المكارى . فلما دخلت البلدة استبقت المكارى معها إلى ما تشاء من الوقت نظير ما يشاء من الأجر فقال بركه . ثم هدأت سير الحمار وأمرت المكارى أن يسحبه على مهل خطوة خطوة . وكانت ترتدى الملس الأسود ذى العواميد المنتفخة بكشكشة الخياطة ، وتلف رأسها بطرحة سوداء من الحبر المفتخر ، والمسبحه فى يديها ، وتتصاعد منها رائحة طيبه ورائحه السيادة والتعود على الأمر والنهى . ثم انها بدأت تصيح بصوت رزين فيه بحة رجولية كبحة صوت « عمى درويش » بالضبط :

— اللى ودنه وعينه واجعاه .. تتشفى بأمر الله .

ولا تفتأ تكرر النداء من خطوة إلى أخرى . فإن هى إلا بضعة أمتار حتى استضافها واحد من علية القوم لكى تنظر فى أذنه . فعالجتها له على مرأى من جمع حاشد منبهر لايني يصلى على النبى وآله . ودعتها سيدة لتنظر فى عينيها ، فعالجتها بنفس الطريقة . فانعقد لسان القوم من الدهشه ، وصار الجميع يتبارون فى استضافتها . إلى أن بعث العمدة شيخ الخفراء فى طلبها ، وكانت فى مندرة رجل على قد حاله ، فنظرت

إلى شيخ الخفراء من فوق إلى تحت نظرة غسلته بها وعرته ، وكانت حين تنفعل تتعثر فى النطق قليلا وتتأخر بعض الحروف فى حلقها فتبدو كأنها تسحبها بصعوبة لتكمل الكلمة ، ثم إنها جمعت شجاعتها وقالت لشيخ الخفراء :

ــ قل لحضرة العمدة أننى لست شحاذة أطلب الرزق أو العون من أحد .. قل له ياحضرة العمدة إن الحاجه تعلبه تفيد الناس مما وهبها الله ، دون أجر إلا من الله .. وقل له أيضا أن الحاجه تعلبه لا تذهب لمن يبعث فى طلبها .. إنها لا تذهب إلا لمن تطلبه .. فإن كان حضرة العمدة يطلب علاجى فليتفضل بالحضور هنا .

وكاد شيخ الخفراء يطلق لسانه المتفلت على الدوام ، لكنه نظر فى هيكلها العام نظره سريعة أدرك خلالها أنه أمام داهية قد يتعرض بسببها لما يكره ، فاستدار عائدا إلى العمدة يبلغه ما سمع . فاندهش العمدة لكنه لبس هدومه ونزل إليها ، ثم لاطفها واعتذر لها بأن نساءه يطلبن تشريفها لرؤيتهن ، فتنازلت وذهبت معه . ثم انها مكثت فى ضيافة العمدة ثلاثة أيام بثلاث ليال كشفت خلالها على جميع أفراد عائلته ، وكشفت كذلك عما فى صدورهم جميعا .. وعرفت عن أسرة الباشتومرجى ما يشفى غليلها ، وتأكدت بما لا يدع مجالا للشك أنه من نسل طيب وأن زوجته كذلك من بيت محترم ، كما تأكدت أن أحدا من عائلته أو عائلتها لم يدخل السجن أو يتهم فى شرفه أو نزاهته أو أمانته . ثم إنها طلبت الرحيل . فأمر العمدة بتوصيلها حتى مدينة دسوق وخلفها ركائب تحمل الاخراج والأجولة والأقفاص المحملة بالهدايا من كل غريب ومثير . وفى دسوق تركت الخفراء بجوار الأمتعة ونزلت بصحبة « عمى طاهر » فتجولت بين محلات الصاغة فاشترت مشخلعه وكردانا وقرطا من الذهب وخلخالا كبيرا من الفضه ، واشترت حمصا وحلاوة من جوار الدسوقى ، وهريسة للأولاد ، وبعض

أصناف العطارة والتوتياء ، ثم عرجت على دار السنترال فتكلمت فى تليفون عمدة البلدة طالبة أن يبلغوا الحاج درويش بأن يرسل الأولاد لمقابلتها على المحطة بأكثر من ركوبه . ثم دخلت البلدة بموكب حافل ، و « عمى درويش » يصفق كفا على كف ، واجتمعت نسوان الدار كلهن حولها مبهورات وإعترفن بأن الدار من غيرها كانت ظلاما وبلا معنى ..

فى تلك الليلة ذهب « عمى درويش » إلى دار الباشتومرجى حيث دوت الزغاريد طائرة كأسراب الحمام . وكان فرح « عمى عبد الباقى » أحلى فرح شهدته دارنا ، إذ غنى فيه « السيد مرسال » أكبر مطرب فى عزبة الطوال المشهورة بالمغنيين ، ورقصت الغازيه فى زفته . وكان جهاز « عمى عبد الباقى » الغنام أميز من جهاز كل أعمامى ، فقد تزوج — دونهم — من بندرية جميلة غير لعوب ، فجاء جهازها هو الآخر بندريا مثلها ، الدولاب العريض ذو الدرف الكثيرة والمرايا المتعددة ، التسريحة التى لم تعرفها واحدة من نساء أعمامى كلهن ، والشوفونيره ذات الأدراج بدلا من البوريه ، والسرير النحاس ذى العساكر النحاسية والداير الحريرى ، وترابيزة يقال لها السفرة مستديرة بمفرش وستة كراسى من الجلد ، وطاقم من الكراسى يقال له الصالون بنوا له وللسفرة حجرة خاصة فى الخلاء المواجه للدار . وبات لعمى « عبد الباقى » الغنام فضل إدخال نظام الكراسى المذهبة المنجدة إلى دار العكايشة لأول مرة بعد الكنب البلدى والكراسى الخيزران والمصاطب . إلا أن هذا الصالون ظل مغلقا شهورا طويلة يتشاءم الجميع من منظره لانه يذكرهم بكراسى وصيوانات المعازى . وكأنما كان تشاؤمهم إيذانا بوقوع ما حدسوا ، إذ مات واحد من أقارب العائلة ليس لدى أهله مكان للعزاء ، فأقيمت المعزى فى هذا الصالون ، فكانت شيئا لائقا وجميلا استحسنه القوم ، فخصصوا هذا الصالون لمثل هذه المناسبة فحسب ، ثم تحمس « عمى درويش » فوسعه فصار كدوار العمدة بل

أشد اتساعا ، وأضاف إليه بعض الكنب البلدى والكراسى الخيزران فصار يتسع لمائتى فرد على الأقل .

ولم يكن أحد يتوقع أن تنجح هذه الزيجه ، فهذه عروس بندرية فاتنه الجمال ، وهذا عريس غنام جوال . لكنهم نسوا أن « عمى عبد الباقى » يحمل كل صفات الغنام الأصيل بما فيها من خيال رقيق وشغل خشن . نسوا كذلك أنه صوفى عاشق للحفاظ على العهد قدر عشقه للعهد نفسه بكل ذرة فى كيانه ، محب جوال يجمع أغنيات البلاد والرعاة يعزف غناءه على السلامية أخت الناى ، وأنه صبور على العهد مجالد للنفس يحب شغل السنة فيصنع الطواقى من خيوط الصوف المندوف الملون ، وكان معجبا بصنيع الله فى أن ينتقل هذا الصوف من فوق أجساد أغنامه ليتم ندفه وغزله فى مكان مجهول ثم يعود إليه من جديد ليصنع منه هذه الطواقى الجميلة التى يحتجز أصدقاؤه أدوارهم لديه فى صنعها لهم ولمعارفهم وأقاربهم . وكانت « عزيزه » مربعة الجسم منحوته بدقة عجزت كل الفساتين مهما اتسعت أن تخفى تفاصيل جسمها الواضحة الصريحة إلى حد الصدمة ، فإذا تكلمت سحرت حتى الصبيان ، وأسرتهم بأصداء حرف الراء مجلجلا مصهللا فى صوتها ، وإذا جلست أمام الفرن انزرد وجهها وصار قرمزيا كقرص الشمس ساعة الشفق ، وكانت ترتبك إذا تحدثت مع أى رجل حتى زوجها ، وتتعثر فى الكلام ، فتجىء كلمات مكان كلمات ، وأحرف بدلا من أحرف ، وهى أول من يضحك على لبختها وتخبيلها ، فيضحك الآخرون مبسوطين من صفائها ومن حيائها وأدبها . وجميع الرجال أعمامها ، إذا ما إضطرت للسلام عليهم يدا بيد تفعل مثلما أوصتها حماتها بأن تلف يدها فى طرف طرحتها قبل أن تمدها للسلام ، مسدلة بقية الطرحة على وجهها وجميع النساء عماتها حتى الصغيرات من بنات العكايشه بوجه عام ، فكانت الصبية تفرح وتنبسط حينما تناديها « عزيزه » ب : ياعمتى فلانه ـــ على اعتبار أنها من عائلة

زوجها . فكان أن حظيت بحب الجميع ، ووزعت عليها « الحاجه تعلبه » امورا ميسورة تقتضى مثل نظافتها وهدوئها : عليها أن تقوم برب اللبن واستخراج القشدة منه فى حضور « الحاجه تعلبه » وأن تصنع الزبد وتسيحه لتجعله سمنا تمتلىء به البرنيات الفخار . وقد اشتركن جميعا فى تعليمها دس الأرز المعمر وعمل الفطير المشلتت والفطير الذره والفطير الدماسى والعيش الغربال والعيش المرحرح والقرص الناعمة ، فكانت تضع حلاوتها فى الفطير أو حتى فى الملوخية القرديحى فيأكل الجميع أصابعهم وراءها .

كانت « عزيزه » رغم تواضع مركز أهلها ، وبكونها ولدت فى المدن وارتحلت مع أبيها فى أكثر من مدينة فى أكثر من مديرية ، تضفى على الدار طابعا بهيجا وجديدا ، لعله مسحة من المدينة تضفى بدورها على الدار مزيدا من العراقة والأصالة ، فعلى قدر نشاط « عزيزه » فى الدار كانت سرعان ما تستحم وترتدى ثوبا نظيفا وفوقه آخر مفتوحاً بدرفتين تلمهما بحزام فى الوسط من نفس القماش ، ويستقر كعباها فوق الشبشب المزوق كتفاحتين ناضجتين ، وبدلا من المنديل أبو أويه تلف شعرها ورأسها كله بشال من الحرير الأحمر القطيفه ، ثم تجلس لتستمع إلى حكايات « الحاجه تعلبه » أو تخاريف « هانم » أو شكاية « مريم » من وجع المفاصل والصداع ، أو شقاوات « بهانه » وحديثها المكشوف عن المواقعات الجنسية ، أو أمنيات « سكينه » حول الخلفه وهى لا تفتأ تبتسم أو تضحك أو تعلق تعليقا يرضى السامعين كافة . ثم إنها غيرت من طبائع نسوان الدار ، فصرن يقلدنها من طرف خفى فى الأهتمام بالنظافة وحفظ اللسان . وكان أكبر تأثير جوهرى هو ما أحدثته فى نفس « عمتى بسيمه » ، إذ حفزتها حفزا على الاعتناء بنفسها والجلوس كثيرا أمام المرآه ، وصارت تستنفر إحساسها بأنوثتها ، حتى غدت « عمتى بسيمه » أنثى لأول مرة ، فبدأت تمارس

الخجل من الرجال الغرباء ، وتدارى وجهها حياء ، وترقق من صوتها وتحفظ لسانها عن الانزلاق إلى بذىء الألفاظ والشتائم الجارحه ، وبدأ أكثر من عريس مغفل يهتم بها ويعرض خدماته لنا ومساعداته فى حقولنا بالعمل المجانى . كذلك غيرت « عزيزه » من ذوق الأكل فى دار العكايشه ، فأدخلت إليها الأكلات البندرية ، تلك التى تصنع من مركبات متعددة من قبيل المكرونة التى تسمى بالبشامل ، وصوانى الخضار باللحوم ، وكباب الحلة وأسياخ الكفتة مثل محلات البندر وطرقا جديدة لطبخ العدس والبطاطس والفول والخضروات ، وأصنافا متعددة من الحلوى بعضها يدعى بأم على أو لقمة القاضى أو ما يسمى بالكيك وبعضها الآخر يدعى بالجلاش والجاتوه ، وآخر ما كنا نتصوره أن يكون هناك نوع من الحلوى يحمل اسم عمتى بسيمه ، ولم نكن نعرف من قبل غير المفروكة والبسيسة وسد الحنك والعصيدة والأرز باللبن والمهلبية ، حتى الكنافة كنا نصنعها فى الدار ونغمس حفنة من خيوطها فى العسل الأسود ونأكل ، فعلمتنا « عزيزه » أن صنع الكنافة له مرحلة أخرى إذ تضعها بعد ذلك فى صينية كأنها البطاطس وتحشو جوفها بالزبد والزبيب والفول السودانى والعسل النحل .. وعرفت مأكولاتنا طعما حريفا مشبعا بأنواع العطارة من كزبزة وجوزة الطيب والحبهان وما إلى ذلك من توابل عطرية ..

غير أن « عمى عبد العزيز » كان قد اعتراه القلق منذ دخلت « عزيزه» دارنا ، فصار يكثر من المكوث فى الدار لأتفه الأسباب ، ويدخل أماكنها المتعددة دون أن يتنحنح ، وقد يدفع باب الكنيف دفعة واحدة . ولما كانت حجرة « عمى عبد الباقى » مجاورة لحجرته فإنه كان يقضى الليل ساهرا كأنه فى انتظار مهرجان قادم . وكثيرا ما كان الخارج ليلا إلى الكنيف يفاجأ به يتمشى فى مربع القاعات رائحا غاديا كأنه يتلصص أو يتجسس ، فبعد أن يبصق المفاجأ فى عبه يكتفى بساالخير ، فيرد مغمغما كأنه يكتم غيظه وحنقه الشديدين . وقد فشل

أعمامى فى تفسير سر انطواء « عمى عبد العزيز » على نفسه والشرود الطويل . وكان هو يتسلل إلى أمه فى غرفتها فينام بجوارها لترقيه . فما أن ملست على جسده بالبخور عدة مرات حتى عرفت ما به ، وليلتها جاء « عمى درويش » من غرفته وطرق باب « الحاجه تعلبه » ليصحبها تلحق بصلاة الفجر ككل يوم ، لكنه ككل يوم أيضا وجدها قد صحت وتوضأت وبدأت فى قراءة الورد ، فلما استدار متجها إلى البوابة نادته : « درويش » ، « نعم ياحاجه » « تعال عايزاك » فطرق الباب كأنه غريب يطرق باب سيدة غريبة وصاح : ياساتر ثم دخل وجلس بجوارها على حافة السرير . فمالت عليه هامسة فى اذنيه بلهجة خطيره : « أخوك رجع صبيا من جديد » هز رأسه فى استفسار ، فغمزته فى ذراعه مرة :

ـــ نسى أمر بناته العرائس وأبنائه العرسان .. وبدأ يمرض بداء الحب .. ويخيل إلى إنه هاجر فراش زوجته منذ وقت طويل بلا سبب .. لقد نظرت فى وجهه فعرفت وفى عينيها فتأكدت .

قال « عمى درويش » بعد برهة فى تريقة خفية : « والعمل .. تراك تزوجينه من جديد ؟ » رفعت رأسها وزأرت فيه بقوة واستنكار :

ـــ منذ متى يتزوج أولادى على زوجاتهم .. لم يعد ينقصنى إلا أن أجىء لكل بغل منكم بعدد من الجوارى يرضين مزاجه .. الزواج عندى مرة واحدة .. أبوك لم يتزوج على .. وأبى لم يتزوج على أمى .. ولولا موضوع الخلفة ومشاكله لما زوجت أخاك عيسى بأكثر من واحدة ولسوف تكون هذه آخر زيجة له .. لقد نبهت عليه أن يعض على هذه الزوجة بأسنانه حتى لا يعيش بعد ذلك أرملا طول حياته .

قال « عمى درويش » فى حيرة :

ـــ إذن فما الذى نفعله فى عبد العزيز ؟

قالت « تعلبه » فى حسم :

ـــ أعرف شغلك معه الأول فى موضوع أهم .. راقبه قبل أن يتسبب لنا فى كارثة وفضيحة على أخر الزمن .. بعدها لا نرفع رؤوسنا فى البلد أبدا ..

ثم مالت على أذنه وهمست طويلا ، فهز « عمى درويش » رأسه وقال : « يساويها ربنا » . وكنت أنام مع « الحاجه تعلبه » فى غرفتها أنا وأمى ، فقدر لى أن أشاهد وأعرف الكثير مما يدور فى غرفتها ولا يعرفه الجميع ..

ومرت أيام وإذا بنا فى عمق الليل نسمع تناطحا يهز الأركان ويهبد فى الأرض كأن جدرانا تقع . فخرجنا كلنا نرفع أشرُطة اللمبات نستطلع الأمر ، فإذا « بعمى درويش » كثور هائج يصرخ فينا : « كله يخش قاعته ويقفل عليه » . ولم يتن الكلمة ، بل لم يكملها حتى أغلقت جميع الأبواب من الداخل . غير إننا رحنا نصيخ السمع فنسمع همهمة غاضبة وزئيرا يعقبه ضرب وصياح مكتوم . وفى الصباح علمنا من « بهانه » نقلا عن « مريم » أن « عمى درويش » تربص بعمى « عبد العزيز » بليل ، وفاجأه فى الظلام واضعا أذنه على باب « عمى عبد الباقى » يتصنت ، فما كان من « عمى درويش » إلا أن جذبه من خناقه بعنف وصار يدفعه إلى الوراء زغدا وتلكيما وتلطيشا وتشليتا كأنه قد جن ، و « عمى عبد العزيز » من فرط خجله وشعوره بالعار يكتم صياحه ويبتعد متحاشيا الضرب قدر الإمكان ، ولكن « عمى درويش » لم يدعه إلا بعد أن صليا الفجر معا وتصالحا ، وتعهد « عمى عبد العزيز » بعدم العودة لهذا الأمر . على أن ثورة « عمى درويش » الحقيقية كانت أفظع فى اليوم التالى وأشد هياجا وجنونا ، حين علم بطريقة ما اننا علمنا بالخبر ورددناه بين أنفسنا ، فنفى الخبر نفيا شديدا ، وصار يعنفنا كيف نفكر هكذا ثم هاجت عصاه وماجت وتطوحت فوق أجسادنا

جميعا ذات اليمين وذات الشمال ، حتى ارتفع صراخنا عاليا ، ودخل فأكمل على « مريم » حتى انطرحت أرضا وصرنا نفوقها بالماء والنوشادر .. ثم خرج يصلى العشاء معلنا أنه سيكمل تأديبنا بعد الصلاة .

وقد انكفأت فوق الخبر مواجير الزمن كلها . غير أن « عمى عبد العزيز » طافت بذهنه فكرة الانعزال وحده فى معيشة ، لم يصرح بها وان قالها عرضا . لحظتها انتفض « عمى درويش » كأنه لدغ ، ورفع عصاه ثم ضرب بها الأرض تجاهه فى قوة وشراسة ، وهبطت « الحاجه تعلبه » عن سريرها مقبلة نحوهما ، فأمسكت « عمى عبد العزيز » من خناقه وهو الكهل المتصابى ، وهزته بعنف وهى التى تجاوزت من العمر حدا لا نستطيع حسابه بالسنوات ، ثم قالت له كأنه لا يزال ذلك الطفل الصغير الغرير :

ـــ اسمع ياولد .. من لا تعجبه العيشة .. من لا يعجبه العيش مع الحاجه فاطمه تعلبه فليرحل هو .. فليخرج من الباب بطوله .. وحده .. حتى بدون ثيابه .. حتى بدون أولاده .. فأنا الذى ربيت وأنا الذى زوجت وأنا الذى أكسو وأطعم .. والأولاد أولاد الدار قبل أن يكونوا أولاد أحد منكم .. ولا أفرط فى ظفر واحد منهم .. ولا حتى فى ظفرك انت أيها الشايب العايب .. لكن من أراد أن يفرط فى الدار .. فخير للدار أن تفرط فيه .. أنه يصبح كعود جف ولا بأس من رميه بعيدا عن الحزمة الخضراء .. الدار هى دار العكايشه .. ولقد تعبت فى الابقاء عليها مفتوحة متكاملة ذات قوة وهيبة .. ولست مستعدة للتخلى عنها على آخر الزمن .. ولست أطيق أن أسمع مجنونا مثلك يقول هذا الكلام الخائب العبيط .. إن قتلك أهون عندى من سماع هذا اللغو ..

وأحس « عمى عبد العزيز » بالإهانة فحاول التمرد والخلاص من يديها بشىء من الخشونة لم تعهدها من قبل ، فاختطفت العصا من

« عمى درويش » وبقوة رفعتها كفارس مغوار تريد أن تشج بها رأسه . وكانت جادة عنيفة لدرجة أن « عمى عبد العزيز » تراجع الى الوراء مرتعدا ينتفض ، لكنها تمالكت نفسها واندفعت تلاحقه بالعصا ، فاعترضها « عمى درويش » صائحا :

ـــ صلى على النبى ياحاجه بقى .. سيبك منه هو يعنى الكلام عليه جمرك ؟

لكن « الحاجه فاطمه » لم تنم ليلتها ، فظلت طول ليلها تقطع قراءة الأوراد بالقرآن وتقطع القرآن بالصلاة ، وتختم الصلاة باستنزال اللعنات على كل شيطان أو إبليس يحوم حول دارها من قريب أو بعيد ، ووقعت فى عرض السماء راجية أن تحرق لها صدور الأعادى والحساد من معلومين ومجهولين ومن فى بطنه غيظ أو فى صدره حقد أو فى قلبه مرض .. وظلت شهورا طويلة لا تكلم « عمى عبد العزيز » ولا يكلمها ..

إلى أن ثقل عليها المرض ذات يوم بصورة واضحة ، حتى هزل جسمها كثيرا وأصبحت تجيئها مياه الوضوء لحد عندها وتحتاج لمن يسندها باستمرار ـــ وهى مهمة تكفلت بها سميحه بنت الكاشف وعزيزه بنت الباشتومرجى ـــ وبدأ الحزن والقلق يعتريان « عمى درويش » بصورة دائمة ، وبدأ يقلل من غيابه خارج الدار متوقعا لأى مكروه وكان على « عمى عبد العزيز » أن يدخل ليصالحها . فلما دخل عليها لم تعطه وجها . فانحنى وقبل رأسها ، ثم جبينها ، ثم يدها ، فدبت فيها الحيوية ، ثم تماسكت ونزلت عن السرير وتربعت على المصطبة بينهم ، واندفعت تردد :

ـــ لقد دخلت هذه الدار وهى مجرد جدران .. ولم يكن أبوكم يملك أكثر من ثلاثة أفدنة هى كل نصيبه من تركة جدكم .. العكايشه طول عمرهم هبل .. كانوا لا يوافقون على زواج أبيكم منى .. وكنت

وحيدة أبوى .. ومات أبى وأنا طفلة فكان على أن أقوم بالسهر على فدانين .. ولم أكن فلاحة .. فزرعتهما أشجاراً وخضروات .. وقال جدكم لأبيكم كيف تتزوج بنت أرملة لا عائلة لها ؟ .. وقد غاظتنى هذه الكلمة .. وكنت أنوى معاتبته بشدة وقسوة .. لولا أن الله رحمه منى وافتكره قبل أن أدخل بأبيكم .. وقد سامحته .. فقد كان صادقا .. فمن يجىء بالعكايشة بجلالة قدرهم للثعالبة الغلابة ؟ .. أنا فى الأصل كنت أحب عائلتكم وأعرف أن منها ناسا كراما أصحاب علم وفضل وتقوى .. صحيح أن ذلك كان منذ أزمنة بعيدة ولكن الورد إن ذبل تبقى فيه رائحته .. وكان شرفا كبيرا لعائلتى المتواضعة أن تصاهر العكايشه هذا صحيح .. ولكن كان شرفا لأبيكم أن تزوج من فاطمه تعلبه .. هذا هو الأمر بكل بساطة .. ولذا فإننى وإن أحببت جدكم لم أغفر له كلمته .. ويظهر أنه هو الاخر كان يخشانى ، ويخشى منى على داره .. فقد كان يزورنى دائما فى المنام .. وكنت أطمئنه أولا بأول على مستقبل ابنه ، وعلى شرف العائلة ولم يكن يبدو عليه أنه راض .. فأصبح يومى وأنا على غير انبساط .. وأنتم .. كنتم تلوموننى وتنحلون وبرى بينكم وبين أنفسكم .. وتتهموننى بادخار عرقكم فى دولابى .. وإننى لا أصرف عليكم إلا بحساب شديد .. وربما كان هذا صحيحا .. ولكنكم الآن ، تملكون عشرين فدانا ، كلها من حسن تدبيرى وشطارتى .. وفوق هذا تملكون ما هو أهم ، تملكون جماعتكم ، تملكون كنزا كبيرا هو كونكم جماعة يغلق عليكم باب واحد ويرعاكم قلب واحد مثلما الرب واحد .. وطالما أنتم هكذا تكفيكم اللقمة ولو كانت كسرة ، والهدمة ولو كانت واحدة .. غير أنكم لا تفهمون هذا لأن هبل العكايشه متأصل فيكم ومن الصعب إقناعكم .. وخير من فيكم هو درويش ، لأنه ابنى بحق ، لكأنه أنا مضاف إليه جدكم .. لقد ورث طيبة قلب العكايشه وورث الباقى منى .. إن جدكم ظل إلى وقت طويل غير راض لكنه أخيرا خضع وابتسم ..

وفى كل ليلة أقيم فيها فرح فى هذه الدار حضرها ورأيته يشارك فيها مبتسما فرحا راضيا .. ولم لا يرضى وهو يرى داره قد عمرت بحق ؟ .

ثم شربت الشاى معنا واستأنفت النوم بعد أن شربت جرعة من دواء صنعته بنفسها . وتبادل الجميع نظرة ذات معنى ، وتهامسوا مصرحين بأن هذه هى علامة النهاية ، وأن « الحاجه تعلبه » سوف تتوكل على الله خلال أيام قليلة ، فهذا هو التفسير الوحيد لهذه الرقة المفاجئة ولهذه المكاشفه ، إن الموت تسبقه عادة حالة من حالات الصفاء ، هكذا قال عمى « الشيخ طلبه » وأمن على كلامه « عمى درويش » ..

تأكد هذا الأحساس يوما بعد يوم ، حيث كفت « الحاجه تعلبه » عن مناكفة النسوان ، وقللت من أوامرها للرجال ، ولم تعد تهتم بمن استيقظ ومن أهمل ، وطالت ساعات نومها طولا غير عادى . وكانوا يجلسون حولها بالساعات يقيسون نبضها وينتظرون الخبر اليقين ، وفى اللحظة التى يتصورون فيها أنها ربما تكون قد أسلمت الروح ، إذا بها ترفع جفنيها وتحرك شفتيها وإذا بها تصلى ، ثم ترمى إليهم بنظرة خاطفه وتقول : « هى المغرب إدنت ولا لسه ؟ » فيتعجبون ، إذ يكون المغرب على وشك الأذان أو بالكاد انتهى الأذان ، أى أنها ليست فقط صاحية بل ومنتبهة إلى الزمن بكل يقظة . وأحيانا كانت تفاجئهم بصيحتها المعهودة المفاجئة : « لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله » ..

على أن « عمى درويش » قال : « مابدهاش » وسافر إلى دسوق وأتى بحكيم نطاس شهير فى المركز اسمه « البير فهمى » الذى دخل عليها بحقيبة جلدية صغيرة فتحها وظل يكشف عليها ساعة كاملة ويجرى لها بعض الاسعافات ، وفى النهاية اغلق حقيبته دون أن يكتب روشتة دواء كالعادة . فنظر له « عمى درويش » مستفسرا ، فبسط الحكيم كفه ناحية رأسه قائلا : « مفيش داعى للغرامة .. حنكتب علاج بس مفيش نتيجة » قال « عمى درويش » وهو يغالب دموعه : « يعنى مفيش

فايده » . قال الحكيم : « ربنا يريحها أحسن .. خلاص .. المسألة مسألة وقت .. يعنى أيام معدوده » ثم سلم وانصرف يوصله « عمى طاهر » بالركوبة إلى المحطة .

فى تلك الليلة نامت « الحاجه تعلبه » نوما عميقا استمر حتى مساء اليوم التالى ، حيث فتحت عينيها لبرهة طويلة تمتمت خلالها بعض تمتمة غامضة أغلب الظن أنها صلاة . وانزوى « عمى درويش » فى ركن بجوار البوابة يفكر وقد بدا عليه الهزال مرة واحدة ، حتى إننا جميعا كبارا وصغارا فوجئنا به على هذه الحالة فانزعجنا ، إذ بدا أن ثيابه قد اتسعت عليه ، وأصبح بداخلها كعود الحطب ، متهدل الملامح شاحب الوجه ناشف الريق متشقق الشفتين . وكان الزوار قد بدأوا يتوافدون على دارنا بلا انقطاع فيجلسون ويقولون « لعمى درويش » : « مالك ياراجل موهوم كده ليه .. هى الدنيا انهدت ولا إيه .. الناس كلها بتموت وإحنا كلنا مصيرنا الموت » فلا يرد ثم يودعهم ويستقبل غيرهم ولا يتكلم كثيرا ، وكل ساعة أو أكثر يدخل على أمه فيقلبها ويحاول محادثتها ثم يعود أكثر شحوبا وقد فقد الكثير من هيبته وبدت عصاه كبيرة عليه غير متناسقة معه ..

ثم إنه ركب الحمار وسافر إلى دسوق مرة أخرى وأتى بحكيم آخر أكبر من سابقه يتقاضى الشيء الفلانى فى الكشف الخصوصى ناهيك عن السفر . ما إن رأى « الحاجه تعلبه » حتى هزها بأسف ولا مبالاة ثم انصرف مؤكدا أن الولية تلفظ الآن أنفاسها الأخيرة وأن علينا أن نتدبر الأمر من الآن ..

من فوره خرج « عمى درويش » إلى دكان « الحاج على القطان » فاشترى أثواب الكفن من أجود صنف وأغلاه . ثم أمر فجاء بالبناء والنقاش وذهبوا إلى مقبرة العائلة فأعادوا بناءها من جديد على نحو أكثر جمالا وهيبة وأقرب إلى أضرحة الأولياء الصالحين . نظر إليها « عمى

درويش » من جميع الاتجاهات من قريب ومن بعيد حتى بدا عليه الرضاء التام . وتولى بنفسه إحضار الماء وسقيا شجرة التوت الكبيرة والأعشاب المتناثرة وأحيا شجرة الصبار الجافة . ثم عاد إلى الدار يخب فى جلبابه ويجرر عصاه من فرط الإرهاق والنكد ، فبعد ساعات قليلة سوف تخلو دارهم — لأول مرة — من « الحاجه تعلبه » خلوا نهائيا . ثم ابتلع دموعه وواصل السير إلى الدار . كان هناك بعض ضيوف من الأغراب يشغلون المصطبة الكبيرة ، فسلم عليهم واتجه إلى غرفة الحاجة وراح يقلبها ويحاول محادثتها دون جدوى . فخرج ، وكان ثمة امرأة عجوز قد جلست فى الرحبة الجوانية من الدار وفردت القماش وراحت تخيط الكفن ، وكان اللون الأبيض قادما نحو عينى « عمى درويش » فيلوى وجهه فى انقباض شديد . ثم إنه خرج إلى الخلاء ، فخرج وراءه كالعادة موكب من الرجال ، فأعطى أوامره لمن حوله بإحضار الفئوس وتنظيف المكان حول الدوار الكبير ، وتنظيف الدوار نفسه من الداخل ورشه بالمياه . كذلك أمر بإرسال مندوب إلى « عباس الملا » فى دسوق ليحتجز ميكروفونا ولمبات ، وآخر إلى بلدة مجاورة للاتفاق مع أشهر مقرىء فى العب كله ، وثالث إلى بلدة العكايشه يبلغ القوم مقدمات النبأ ..

فلما بدىء فى تنفيذ كل ذلك أمامه عاد فدخل الدار فتحرك الموكب وراءه داخلا . خلع « عمى درويش » حذاءه وتربع فوق المصطبة مستندا على المساند الكبيرة الصلبة ، واضعا عصاه بجواره . ثم عاد فجلس متقرفصا وشرد ببصره لبرهة طويلة ، ثم أراح رأسه على كفه واندمج فى تفكير عميق ، وطال استغراقه حتى سكت من حوله لإعطائه فرصة للنوم ساعة أو ساعتين يستعين بهما على ما قد ينتظره فى المساء من مشاق . لكن النوم طال ، فاضطر الضيوف إلى الانصراف ، واضطر « عمى عبد العزيز » لإيقاظه حتى يسلم عليهم . هزه برفق قائلا : « ياحاج » . ولم يكمل كلمته إذ سقط رأس « عمى درويش »

على صدره . فمال عليه « عمى عبد العزيز » وتفحصه فوجد أن السر الإلهى قد صعد .

المنخل الحديد

بعد انقطاع لا يدوم أكثر من جمعتين تعود البهجة من جديد ..

إذ ما يكاد الأسبوع الأول يمر حافلا بالأرغفة الطازجة والأقراص الناعمة والفطير المشلتت والعصيدة المصنوعة بالدقيق والعسل ، حتى تبدأ من جديد سحب من الهم تسيطر على دارنا لا نعرف لها سببا ، لكن لون الاصبحة يتغير ويبدو كأن أبى وأمى غير منتبهين إلينا . ثم تجىء ليلة يتعشى فيها الأب معنا على غير العادة فنلاحظ أن وجهه قد خلع عن نفسه كثيرا من الملاءات السوداء حتى صفت صفحة الوجه عن ملامحه الحقيقية . يسيطر الهدوء من جديد على أمى فتتربع معنا فوق الحصيرة حول الطبلية ، وقد صفا وجهها هى الأخرى وانسدلت على جانبيه مقاصيص الشعر الفائض بغزارة من تحت المنديل أبو أوية .. فنعرف أن السحب الغليظة الداكنة التى لا نعرف سببها قد بدأت تنجلى ..

فى الصباح تبكر فتجدنى مبحلق العينين فى انتظارها . تذهب إلى الحوض الأسمنتى الذى نستحم فيه فى ركن القاعة . تغسل وجهها بكوب ماء . تسحب شاشها الأسود . تلف به رأسها ، تتجه إلى أبى فتصحيه برفق . يتقلب ثم يجلس . يدب يده فى جيب الصديرى ،

يخرج الكيس يتناول منها حفنة من القروش الفضية والشلنات والبرايز الورقيه ، يعدها فى كف أمى قرشا قرشا ونصف افرنك نصف افرنك وشلنا شلنا وبريزه بريزه تعيد هى عدها من جديد قائلة : الله واحد .. مالوش تانى .. العدد ثلاثة . تصرها فى طرف المنديل أبو أوية وتعقد عليها جيدا ثم تعود فتتعصب به لتختفى العقدة بين طيات المنديل ..

أتبعها فى قفزة واحدة إلى الخلاء . أظل أتبعها وأنا أعرف أنها ذاهبة إلى مخزن الحاج داوود . يشملنى الفرح حين أراها متجهة إليه . يقابلها إبنه الكبير « طلب » الذى يغازل كل نساء البلدة بلا استثناء كحق سلمت له البلدة به لثقتهم فى أن أباه الحاج داوود قد رباه بشدة وأدبه فأحسن تأديبه ، وأن هذا الغزل مجرد غزل فارغ . تقول له أمى وهى تتجاهل ما فى رد صباحه من إيماء إلى الورد والفل والياسمين والقشطة الربانى .

ـــ بكام القمح النهارده ياسى طلب ؟

يقول لها من خلال ابتسامته الأزلية الشابة :

ـــ بعنا بتلاتين الكيلة .. إنما عشانك بتسعه وعشرين .

تقول بتلقائيه :

ـــ هز ، ودك طبعا .

وهى كلمة ترد بها كل من تسمع السعر ، وتقصد أنها يحق لها أن تجلس بنفسها وتعبىء الكيلة وتهزها حتى يستقر القمح فيها وينتظم فتتسع مساحة الكيلة لقمح كثير ، ثم تدك وتكبس ، وتحط قمحا ، وتهز وتدك . ورغم أن « طلب » سوف يبيع لها بهذه الطريقة إذ أن السعر الذى يطلبه يحسب حساب هذه العملية ، فإنه يحتج احتجاجا مسرحيا قائلا :

ـــ لا .. قايم .. بتلاتين قايم .

أى أن الكيلة تمتلىء دفعة واحدة وكفى . لكنه يقصد من ذلك أن تظل السيدة المشتريه تقول له محتجه : « هزودك » ، وهو يردد خلفها : « قايم » .. « هزودك » ..« قايم » .. فإذا ما انتبهت السيدة إلى ما فى الكلمة من غمز خبيث لطيف احمر وجهها خجلا ولكزته فى كتفه بعشم فيتلقى اللكزة بحركة مسرحية كأنما أصابه لهب لذيذ . وفى العادة يترك السيدة تبرك على الكيلة وتعبئها بالطريقة التى تشاء .

على أن أمى لا يروق لها مزاحه وإن جاملته بالسكات . وفى الواقع لا يروق لها أى مزاح وهذا ما يطمئن أبى ويضايقه فى نفس الوقت . تتجاهل غزل « طلب » وتتجه نحو جبل القمح فى نهاية الحجرة قائله :

ــ ياخويه إنت باين عليك فايق ورايق .

ثم تبرك على الكيلة وتظل تعبىء ، وتهز ، وتدك ، وتعبىء وتضيف قمحا ، حتى يعلو القمح فوق حافة الكيلة ، فتضع من كف يسراها حاجزا تسند به المرتفع الهرمى الزائد ثم تدلق فى قفتها الكبيرة . وهكذا تفعل أربع مرات ثم تختلس حفانا أو حفانين فى غفلة من « طلب » الذى يحلو له أن يصيح فيها منبها وهو يعد فلوسها :

ــ شايفك بضهرى .

فترد عليه باحتجاج باسم :

ــ فاكرنا حراميه .. طب ما دام قلت كده بقى أهه .

ثم تغترف حفنتين اخريين ترمى بهما فى القفة ..

تعود إلى الدار وقد تحولت إلى جسد يتلعبط تحت القفة الثقيلة فى عياقة لا مثيل لها ، فأدهش كيف ينفض جسدها عن نفسه كل هذه البهجة وهى لا تشرب إلا المر ليل نهار . تحط فى وسط الدار بمساعدة عمتها « قطيفه » التى تدخل وراءها من تلقاء نفسها لهذا الغرض . تجىء فاردة ساقيها واضعة فوقها الصينية ، وتغرف من الطشت قدرا تضعه

عليها وتروح بكفها تسحب حفنه حفنه تفردها على الصينية لتنتقى من بينها قطع الطين والحصى والدنيبة ، وهكذا إلى أن تنتهى من نقاوة القمح كله حبة حبة . ويكون النهار قد انتصف . فتنادى عمتها « قطيفه » لتساعدها فى رفع القفه على رأسها . أكون قد سبقتها إلى الطريق وقد بدأت أنسى شبح الأيام الفائته تشملنى زأططة وفرفشة فأروح أضرب الحصى بقدمى وأترقص فى مشيتى وربما غنيت . أترنح فوق شواطىء القنيان بشقاوة وهى من خلفى تصرخ كل حين فى فزع صائحة بى أن أمشى مثل خلق الله . حتى نصل إلى ترعة المشروع عند الموردة بجوار الكوبرى الذى هو نفس الطريق يفصل بين جزئين من الترعة يتصلان بماسورة واسعة مهولة تحت الأرض . الموردة عبارة عن شاطىء مبنى بقطع كبيرة من الحجر يتناسق فى دوائر يتخلله سلم حجرى عريض هابط إلى المياه ، كذلك الأمر بالنسبة للشاطىء المقابل .

يستقبلنى مهرجان النساء بكرنفال بهيج من الألوان . أفخاذ مطوية وارداف مكتنزة وأثداء مندلقة وشعور منسابة وأجساد لامعة ساطعة فى ضوء الشمس تنتفض بالحيوية والنشاط فيبدو كأنه احتفال كبير . بعضهن يغسلن المواعين بهباب الفرن وحزمة القش . بعضهن يغسلن الثياب بالصابون ، بعضهن يغسلن القمح ..

تنضم أمى إلى هذا الحفل الجميل .. تعافيهن بالعافية وتهبط الدرج إلى مستوى المياه فتجلس هى الأخرى طاوية فخديها مبرزة عجيزتها . تنتزع القفه الملآنة من قفه فارغة تتناول مقطفا صغيرا كان مطويا تحت إبطها . تملاه بالقمح وتغطسه فى قلب الماء فتسود صفحة الماء بما كان فى القمح من تراب ووسخ . تهز المقطف تحت الماء ثم ترفعه يشر منه الماء المسود . تعيد الكرة مثنى وثلاث ورباع ثم تدلق القمح المغسول فى القفه الفارغة بعد غسلها هى الأخرى . وهكذا إلى أن تنتهى من غسل قمحها ثم تتقرفص ناظرة إلى إحدى جاراتها دون أن تنبس بحرف ، فتترك الجارة

ما فى يدها وتجىء لتساعد أمى فى حمل قفتها على رأسها ، لكنها قبل أن تستدير تمضى تلقى حواليها نظرة فاحصة مستعدة للهلع فى البحث عنى . أكون قد انضممت إلى الأولاد ، إذ خلعنا جلابيبنا وألقينا بأنفسنا فى قلب الترعة نطبش ونقذف بعضنا البعض برذاذ المياه ، ونخرج لنتمرغ على تراب الطريق فنكتسى أثوابا كثيفة من حصى داكن نتوجه بطرطور من الطين نلصقه فوق الرأس ونمشى هكذا ذهابا وجيئة نخيف المارة ثم نقذف بأنفسنا من جديد فى قلب الماء . يدهمنى صياحها الذى تزداد فيه ــ كلما صاحت ــ نبرة أحس أنها عورة لا يجب أن يراها الأخرون أو تصافح آذانهم : «ياواد ياللى تنشك فى لسانك .. تعالى إلاهى ما توعى تبات . إلاهى تنزل ما تطلعش ياابن بطنى .. يلا قدامى فوت» . فبسرعة أمسح بقايا الماء عن وجهى وأسحب ثوبى وأجرى به عاريا خلفها . وبعد خطوات تكون الشمس قد جففت جسدى فأرتدى ثوبى ..

نصل إلى الدار . تصعد أمى إلى السطح . تفرش الحصيرة وجوالين . تفرد فوقها القمح الطرى . تجلسنى أمامه ممسكا بعصا طويلة ، وتنزل لتكنس الدار وتعد وجبة العشاء على عجل . لابد أن تكون عينى فى وسط رأسى ترقب أى غراب مفترس أو حمام سابح أو عصفور باحث عن حبة رزق ، لأرفع العصا أذب أى هجوم على قمحنا . إذا سرحت قليلا فى لعبة أو فى فكرة التبسلل إلى سطح الجيران لسرقة كوز من الذرة أشترى به العسلية تذكرت قرصة قرصتها لى أمى ذات يوم نسيت فيه القمح فمر حمار ضال أكل منه حتى شبع ويومها إبتلعت أمى غصتها وقطعت من خدى قطعة ظلت تلهب دمى كلما تذكرتها ..

تنتهى الشمس من أداء مهمتها على خير وجه فتلف وجهها بالملاءة القرمزية وتنسحب إلى ما وراء السطوح والأضرحة والحقول البعيدة

وتظل تشاغب قمحنا باسمة حتى يدركها الليل فيفرد فوقها عباءته السوداء . وحينئذ تجمع أمى قمحها حبة حبة تعيده إلى القفة وتنزل برفق وحذر هابطة السلم الخشبى الرفيع المسنود على حافة السطح ، وتمضى خارجة موصية عمتها قطيفه أن تجعل بالها من الدار وأن تنبىء عبد الشافى ــ أبى ــ بأنها عائدة بعد وقت ربما يمتد إلى منتصف الليل ..

فى بلدتنا ثلاث ماكينات للطحين ، لكن أمى تختار ماكينة العمدة مصطفى الجيار الكائنة على مقربة من ترعة السلمونية فى المدخل الشرقى للبلدة ، تختارها ليس لأن صاحبها العمدة وإنما لأن الأسطى عبد السلام الذى يديرها ويجلس أمام القادوس يمت إليها بصلة قربى ، إذ هى تفرض علينا أن نناديه : ياخال ، وإذا خاطبته قالت : ياعبد السلام ياخويه ويقال أنه من عائلة أبيها المرحوم ، وأنها لذلك تجعل منه أخا لها وخالا لنا ، وأنه ليجاملها مجاملة علنية يعرفها الجميع ولكنهم جميعا يتغافلون من أجل خاطر عيونه فهو الوحيد الذى ولفت عليه الماكينة وباتت لا تدور إلا بيديه ولا أحد غيره يعرف خلتها ..

تقطع أمى تذكرة بأربع كيلات توزن على الميزان ذى القاعدة الخشبية والرمانة المتحركة على قضيب مضلع محفورة فيه شرط وأرقام وعلامات . تدفع عن كل كيلة خمس مليمات ثم تأخذ التذكرة وتتجه بها مباشرة إلى الأسطى عبد السلام أمام القادوس وتعطيها له ، فيغرزها فى سلك معقوف بجواره مع سوابقها . فلا يتذمر أحد من الزبائن لأن أمى أخذت دوره . بكل ثقة وخجل تصعد أمى بالقفة على سلم خشبى ثابت يوصلها إلى السطح حيث فتحة القادوس الواسعة التى تشبه نفيرا كبيرا . تنتظر حتى تغيب أخر حفنه قمح كانت فى قعر القادوس ، ثم تسرع بدلق قفتها فى فتحة القادوس . على الفور يكون الأسطى عبد السلام قد تابعها بوجهه العريض الأسمر المكتنز الملامح المطبق الشفتين

على بسمة صحراوية عصية على الانطلاق ، ومثل كل الوجوه فى الماكينة اكتسى بوبرة من الدقيق الأبيض تسوى بين جميع الوجوه . يسرع ببرم دائرة حديدية صغيرة على يمينه يغلق بها تيار الدقيق المتدفق من فتحة أسفل القادوس . ولربما أحست صاحبة الدقيق أنه اختصر من حقها دفقة أو دفقتين أو ثلاث ، لكنها تكتفى بإرسال نظرة ذات معنى إلى الأسطى عبده ثم ترفع قفتها وتمضى ..

ترمى له أمى القفة الفارغة فيتلقفها ويضعها أسفل الفتحة السفلية ثم يدير العجلة فينهمر الدقيق انهمارا كثيفا حبيبا . وتهبط أمى لتقف أمام القادوس تفرد الدقيق المنهمر فى القفة وتكبسه حتى تمتلىء القفة فتجىء بغيرها . وحينما تقل كثافة الانهمار ترفع ذراعيها وبكفيها الجميلتين تروح تضرب وتضرب فوق خشبة القادوس بكل عنفوان وقوة حتى يجود باخر ما فى جوفه من شعيرات الدقيق . هذا القادوس كم يتلقى من ضربات النساء طول النهار والليل فلا يكل ولا يمل ولا ينى يدفق فى قففهم ذلك الشريط الأبيض الساخن . ويعرف الأسطى عبد السلام أن صاحبة الطحين التالى قد أفرغت قمحها فى القادوس منذ برهة وأن كثافة الانهمار قد عادت من جديد لكنه يتغافل لبرهة غير وجيزة تتلكأ خلالها أمى فى الفرد والكبس وهى تنكس رأسها فى خجل ينبىء عن شدة الامتنان والشعور بالذنب ، ثم يغلق الأسطى عبده دفق الدقيق ويساعد أمى فى حمل القفه . وقبل أن تمضى تستدير باحثة عنى بنظرات وجلة وقد اصطبغ وجهها هى الأخرى بقطيفة من الدقيق . أكون قد انتهيت من مهمتى الصعبة فى مغافلة خاله « ست البلد » وسرقة حفنتين من الترمس المملح اللذيذ حشوت بهما جيبى ورحت فى اطمئنان تام أشيع فى فمى الحبة تلو الأخرى بقشرها ..

أمضى خلفها ممسكا بجلبابها هذه المرة أحاول الانتظام فى إيقاع جسدها المنتفض تحت قفتين ثقيلتين ، والليل مخشوشن بصفير الصراصير

ونقيق الضفادع ونباح الكلاب .

تدلف أمي داخلة الدار باسم الله الرحمن الرحيم : تنادى من أول العتبة فى هدوء قائلة : ياعبد الشافى . فيخف أبى لاستقبالها حاملا عنها بعض حملها ليضعاه على المصطبة الكبيرة التى ننام عليها كلنا . وهنا يحلو له أن يعود فيستغرق فى النوم . تجىء أمى بالطشت وتضعه فوق المصطبة وتجلس أمامه . تنتظر قليلا . أزحف نحوها شيئا فشيئا علنى أعرف فيم شرودها ذاك . أنظر فى عينيها فأجد فيهما أبحرا من الحزن الغامض العميق . فينقبض قلبى ، يركبنى الغم ، أضع رأسى على فخذ أمى المتربعة محاولا الاستغراق فى النوم كأبى . أشعر برعشته وسخونته فأعرف أنها لا تزال متعبة وأسمع دقات قلبها تطن فى اذنى . أتوقع أن ترفع فخذها لتدفعنى عنه صائحة : « حل عنى بقى خلى عندك دم » . لكنها لا تفعل ، بل تمرر يدها على ظهرى فاستنيم فى لذة فائقة تخدعنى حتى لأغيب عن الوعى لفترة طويلة يحلو لى أن أطيلها بقدر . بعدها أفتح عينى فى شغف فأرى خيال أمى مجسدا على الحائط بجلستها ، بالفصل الحاسم بين إليتيها كأنها عارية من كافة الثياب . يتدحرج رأسى فوق حجرها رائحا غاديا كأن فى جسد أمى قوة شيطانية تدفعنى بعيدا لترتد بى وهكذا فى عنف وقسوة شديدين ، فأعرف أن المنخل السلك لم يفرغ من مهمته بعد ، وأستشعر شيئا كالغضب العارم كالسخط يتصاعد من جسد أمى وأنا رائح غاد ما بين باب اليقظة وباب النوم . فى قلب المنخل السلك ، ووسط الدقيق ، ملعقة وضعتها أمى لتكون ثقلا يحفز الدقيق على الزحف فى دوامة مع حركة المنخل ، لاتنى تضرب جدار المنخل مرة حادة وأخرى خافته : « تشك تشك تشك تشك » دوامة الدفء المنبعثة من صدر أمى وما تحت الصدر تجعل صوت ضرب الملعقة فى جدار المنخل يخفت شيئا فشيئا ثم ما يلبث أن يختفى تماما ، ثم ما يلبث الكون كله أن يختفى لبرهة أشعر خلالها كأننى مقبل على هدأة عظيمة بهيجة ممتعة وكأن الكون قد انتظم فى إيقاع

جميل متلاحق السرعة : دم تك دم تك دم تك دم تك دم تك .. أفتح عينى من حب ومن بهجة فتسقط على الحائط المدهون بضوء اللمبة نمره خمسة .. صورة أمى لا تزال متربعة على الحائط لكن رأسى هذه المرة يؤدى فوق حجرها رقصة هادئه يجسدها الإيقاع الجميل ، والمنخل نصف طارة سوداء معلقة فى الهواء رائحة غادية فى انضباط وإحكام كأن ثمة مغناطيس خفى يتحكم فى ضبطه ، كل ما هنالك أن كفى أمى المتقابلتين تتبادلان لمس المنخل كلما ارتد إليها ، مجرد اللمس فحسب كأنها تعزف الموسيقى . الدقيق الأبيض العلامة ينسرب من المنخل مثل ضوء الكشاف ، فأعرف أن طور المنخل السلك قد انتهى وأن المنخل الحرير قد بدأ يعيد نخل ما سبق أن نخله المنخل السلك ليفرز العلامة من السن . تنسرب إلى أنفى وخياشيمى أحلى رائحة فى الوجود مسكرة ، لا أعرف إن كانت رائحة الدقيق الساخن أم رائحة جسد أمى المشبع بالدفء والحرارة ؟ أم الرائحتين معا ؟ وإذ يشغلنى التمييز بين الرائحتين أكون قد ذبت فى نوم عميق عميق عميق ، وصرت جزءا من موسيقى المنخل الحرير يرسم على الحائط فى الضوء العليل ظلالا من الألحان .

العـــتقي

كنا مضطرين دائما للذهاب إلى العتقى . فأبى ــ ولا غرور ــ هو الوحيد من بين إخوته الذى تعلم القراءة والكتابة فألحقه مرشح الدائرة موظفا بمصلحة المساحة ، يقبض راتبا كل شهر يدفعه كله إلى البقال الذى يجر منه السجائر والشاى والسكر له ولكل أعمامى ، مقابل أن يأكل هو ونحن من زرع الفدادين الثلاثة التى تمتلكها أمه مبروكة الشيالة ارثا عن أبيها إبراهيم الشيال . لكن الأهم من كل ذلك أن أبى لابد أن يرتدى حذاء لامعا نظيفا ، وحيث أنه موظف وله فى البلدة اسم ورسم ومكانة فإن زوجته هى الأخرى لابد أن يكون لها حذاء ترتديه عند الخروج على ندرته : شبشب أسود ذو كعب ، أحب رؤية أمى وهى ترتديه داخل الدار ، حيث يستقر كعباها المستديران كتفاحتين فوق كعب الشبشب وتخطر فى الدار رائحة غادية بالأشياء ، لطرقعاته تحت كعبيها صوت كصوت القبلة النشوانة فرحة تكرر نفسها كلما ابتعد الكعب عن الكعب لبرهة ثم عاد ، سمحت أمى لنفسها بارتدائه داخل الدار منذ أن اشترى لها أبى شبشبا جديدا ــ أسود أيضا ــ فى العيد الصغير لكن المناسبة لم تكن العيد إنما كانت سفرها لأول مرة فى حياتها بعد زواجها لزيارة أمها فى المدينة المجاورة حيث تقيم لدى بعض أقاربها ..

لأبى ثلاثة أحذية ، أحدها أبيض على بنى ، وهو مخبأ دائما فى درج البوريه تحت ثياب مهملة يحتفظ به أبى للطلعة ، للسفر ، لحضور المجالس التى تضم علية القوم ، إذ يلبس الجلباب الصوفى فوق الصديرى الشاهى ، وفوقه يرتدى البالطو الجبردين الأصيل ثم يضع الطربوش على رأسه جاعلا الزر مجنحا نحو اليمين ما أمكن ، ويمسك العصا الأبنوس أم عوجايه وإذ يمشى تراه ينظر أول ما ينظر إلى الحذاء فى قدميه ، ثم يتجه إلى مرآة البوريه ثم مرآة التسريحة ليرى الحذاء من جديد ، فيما هو يتمتم لنفسه كأنما قد سأله سائل ، يقول : « بلدنا دى أصلها عجب » « الواحد فيها أول ما يشوفك يبص فى جزمتك على طول » ناس عندهم عقدة الجزمه « من جزمتك يحكم عليك » . ثم يداعب شاربه الخنفساء المستقر على فمه الواسع الرقيق ، ويضيف « ناس فاضيه » ، ثم يخرج ، وحينئذ تبدأ مهمة العصا فى طرد الحصى من أمامه حتى لا يتعرض لنعل الحذاء بسوء . أما الحذائين الاخرين فكاناهما وشبشب أمى الذى ترتديه داخل الدار ، وجزمة أخى التلميذ ، وصندلى ، مصدر المهمة الملقاة على عاتقى دوما وهى الذهاب إلى العتقى بين يوم وآخر أو جمعه وأخرى أو يوم سوق فالذى يليه . أما شبشب جدتى « مبروكه الشياله » فانه خرج من عهدتى منذ مدة طويلة حينما أفتى العتقى وهو يهز رأسه فى أسف بالغ أن الشبشب لم يعد يصلح للاستعمال ، إذ لم يعد فى جلده أو نعله مكان لخيط أو لغرز المخراز . مع ذلك لم تفرط فيه جدتى التى يحلو لنا جميعا تجريدها من هذا اللقب والاكتفاء بمبروكة الشيالة أسوة بأهل البلدة كلهم . فكانت إذا تهيأت للخروج طلبت الشبشب ، وحينئذ نظل جميعا نبحث لها عنه ، لنأتى بفردة من تحت الصندرة ، وأخرى من تحت بير السلم أو ربما من كوم التراب فى الشارع المواجه لدارنا .

وشبشب « مبروكه الشياله » قد أصبح من فرط الاستعمال والقدم كجيفة بلا ملامح ، مجرد جلدتين كثيبتين منكفئتين على بقايا نعل تصلب وتآكل وملأته القروح بالثقوب النافذة تسمح بالكاد لأن تدس

مبروكة الشيالة أصابعها فى الجلدتين وتبقى كل قدمها على الأرض ، وتزحف فى مشيتها ببطء وتأن لتظل أصابعها متمكنة من الاحتفاظ بالجلدتين . وذلك بالطبع أمر مضن والحفاء أسهل منه وأفضل بكثير بل وأكثر مدعاة للاحترام ، ولكن كيف يتأتى لمبروكة الشيالة وهى أم لخمسة رجال كالفحول وست نساء متزوجات من ستة من أعيان البلدة كل وجيه منهم يناطح الآخر أن ترتدى الطرحة والملس ولا يكون فى قدميها حذاء ؟ فان قيل لها : وهل هذا حذاء بذمتك ياشيالة ؟ ترد قائلة : « آهو صوره وخلاص .. احنا حنتعايق على آخر الزمن .. ما دام صوابع الرجل متغطيه خلاص » ، فيضحك من يتلقى هذا الرد لإيمانه بأن مبروكة الشيالة تدلس على نفسها ، مبررة بخلها على نفسها بثمن شبشب تستر به نفسها أمام أزواج بناتها الأعيان على الأقل ، لهذا فان أحدا من أهل بلدتنا لم يوجه اللوم إلى أحد من أعمامى إذ يعرف كل الناس أن مبروكه الشيالة هى التى تمسك فى يديها مصروف الدار توجهه بمعرفتها فتختزنه أو تدفنه فى الطين ليوم معلوم . وكانت مبروكة الشيالة تضطر كثيرا لاستخدام الشبشب أو القبقاب لأنها تتوضأ كثيرا . وكل قبقاب فى دارنا كانت جلدته تنفصل عن الخشبه بعد أيام قليلة بسبب كثرة وضوء جدتى مبروكة الشيالة ، وكنا نتحرج من الذهاب إلى العتقى ، ويكتفى الواحد منا كلما احتاج إلى الوضوء أن يدق الجلدة بمسمار جديد حتى تمتلىء الخشبة بالمسامير ويقصر طول الجلدة فيرمى بالقبقاب تحت بير السلم بين أنداده .. وحينئذ لم تكن مبروكه الشيالة تتحرج من انتهاز فرصة جلوس أمى فتختلس شبشبها لتتوضأ به فى محل الأدب ، فيكفهر وجه أمى ويعلوه الغضب ، وتظل تمصمص بشفتيها وتلوى بوزها فى قرف إلى أن تعود مبروكه الشيالة تخب فى الشبشب بعد أن أغرقته بالمياه وبرطشته ونيلته بستين نيلة . تنتظر أمى حتى يتخلص شبشبها فتختطفه منفجرة فى مبروكة الشيالة مؤكدة لها أن تترك لها الشبشب فى حاله ، فإن كشرت لها مبروكة الشيالة ـــ ولابد أن

تكشر ــ شخطت فيها أمى منبهة إياها إلى أن هذه آخر مرة تنبه عليها فيها ، ولا تتورع أن تقول لها : يامبروكه ياشياله ، دون أن تقول لها : ياأمى ــ باعتبارها حماتها . هنا تنفجر مبروكة الشيالة فى أمى لاعنة أباها ــ أبو لحاف ــ وأمها ــ أم صفيحة ــ بألفاظ يقشعر لها البدن حتى ليتفرج علينا كل أهل الشارع بلا استثناء ، ويتدخلون بشدة للحيلولة بينها وبين أمى بأى شكل ، إلا أنها تظل طول النهار تلعن فى أمى وأبى ــ ابن بطنها ــ الذى خاب ونصر عليها بنت أبى لحاف وأم صفيحة . ويقال فى محيط حارتنا أن سر هذه الألقاب هو أن جدى لأمى سرق لحافا ذات يوم ، وهى تهمة لم يؤكدها أحد سوى مبروكة الشيالة ، وأن جدتى لأمى كانت فى الأصل ملاية تجلب الماء للناس بالصفيحة لقاء أجر زهيد ، وهى أيضا تهمة غير مؤكدة لأن جدتى فيما هو واضح بنت عز ولها أقارب فى المدينة ..

كل هذا جعل أمى تصحو دائما لشبشبها ولا تمكن العجوز منه ، الأمر الذى كان يتسبب فى العراك ، فلا ترد أمى ، فتضطر مبروكة الشيالة إلى الوضوء حافية وتعيد مسح قدميها بجلبابها قبل الصلاة ، ثم تختم الصلاة بالدعاء على لأننى زعمت أن العتقى رفض تصليح شبشبها وتتهمنى وتتهمه بأننا أولاد كلب سل مل ، وأننا ــ العتقى وأنا ــ لن ننجو من عذاب جهنم بسبب ما تلاقيه من عنت فى الوضوء ..

ذهبنا ذات ليلة بربطة المعلم لزيارة عمتى الكبيره « سعديه » المتزوجة فى غربى البلد من الحاج بكرى تاجر الحبوب ، الثرى الذى يلبس كل يوم شبشبا جديدا يناسب طاقم التوب والصديرى والطاقية ، فما بالك بزوجه وأولاده ؟ يشاع فى البلدة أن العتقى يذهب بنفسه إلى الدار ليفصل لهم الأحذية على مقاسهم . كانت الزيارة تضم أبى وأمى وثلاثة من أعمامى وزوجاتهم . كنا وفدا كبيرا تتقدمه مبروكة الشيالة بشبشبها المزعوم الذى أصرت على تعليقه فى أصابعها . ولم يكن أبى يقيم

وزنا لذلك ربما ليقينه أن من يرئ أمه مبروكة الشيالة فإنه بالتأكيد لن ينظر فى قدميها ، فالملس الأسود المبقلل فى مستطيلات متكرمشة متعرجة بالخياطة ينساب زاحفا على الأرض مداريا قدميها ، ووجهها الذى تمرد على لفة الطرحة بملامحه المتكرمشة فى تناسق غريب ، والمتشققة كصفحة عجين خمران أو كتشقق البياض على جدار رطب ، حيث تطل من بين ثنيات الوجه المتجاورة عينان قويتان كعينى تمساح مفترس ، لكن لطف الوجه وطرافة الزمن المتراكم فوقه يقلل من وحشية العينين ..

كانت الحصر مفروشة على أرض دوار البيت وفى المندرة المواجهة سجاجيد . فتعين علينا أن نميل كلنا دفعة واحدة لنخلع أحذيتنا ونتركها على العتبة قبل الدخول ، هكذا فعلنا إلا مبروكة الشيالة حركت ساقيها وهى واقفه ثم دلفت إلى الداخل . غير اننا بالطبع لم ننتبه إلى قطعة الجيفة المترهلة التى تركتها على العتبة تائهه بين الشباشب والبلغ والأحذية ، أما حذاء أبى الأبيض على بنى فقد طواه أبى وحده على مقربة منه كما يفعل فى المسجد . تعشينا وشربنا الشاى ثم القهوة ثم قزقزنا كيلة سودانى محمص ، وقزقزنا أيضا فى سيرة كل أقاربنا غير الحاضرين متهمين إياهم بالمروق والعصيان وما شئت من تهم ، وضحكنا حتى دمعت عيوننا من مبروكة الشيالة وآرائها المتطرفة فى معظم كبراء البلدة . وإذا بكلب الدار وكان أمامنا منذ وقت يقوم بجهود بهلوانية نشيطة فى مربع الأحذية المتناثرة أمام العتبة ، كأنه يؤدى رقصة شيطانية غاضبة . فانتبهنا إليه أكثر ، فإذا به يمسك بفردة من شبشب مبروكة الشيالة بين مخالبه يتشممه ويحاول النفاذ بأسنانه فيه فلا يستطيع فيفعل حركات غاضبة « ويهوهو » فى يأس ثم يعيد الكرة من جديد . فقامت إليه عمتى سعدية وهى تتبختر وتهز كفلها ، طردته ثم أمسكت فردة الشبشب بأطراف أصابعها فى تأفف قائلة : « إيه القرف ده .. جايبة لنا منين القرف ده إلاهى ينيلك .. امشى بقى من هنا داهيه تقرفك » ، وألقت بالفردة إلى

بعيد فى حوش الدار ، ثم إذا بها تنتبه إلى الفردة الأخرى أو ما هو مفترض أنه فردة ، فبان عليها الاندهاش ونظرت حواليها قائله : « دا جايب فردتين كمان .. إلاهى تتنيل بنيله داحنا منضفينك على الغالى » ، ورمتها هى الأخرى فى الحوش . فانسحبت من لسانى قائلا : « دا شبشب .. » ، لكننى تلقيت قرصة موجعة من جدتى مبروكة ونظرة قاسية من أبى فأمسكت عن القول . فصاحت عمتى سعديه فى كثير جدا من الحرج : « بتاع حد فيكم ؟ مش معقولة » ثم استدركت فى حرج باسم : « بتاعك الشبشب ده ياامه ؟ » واتبعت ذلك ببسمة عارفة بكل شىء . لكن مبروكه الشيالة انفجرت فيها بكل كبرياء : « فشر .. أنا برضه ألبس القرف ده .. داهيه تسم بدنك وانتى قليلة الحيا معندكيش ريحة الأدب .. إخيه » ، ولوت بوزها لمدة دقيقة ثم استطردت تحكى ما كانت تحكيه من أخبار أهل زمان . وكنا نكتم ضحكاتنا طوال الجلسه ، فما إن خرجنا إلى الشارع ، وابتعدنا عن دار عمتى سعدية حتى انفجرنا فى الضحك وأبى يشخط فينا بجدية فنحول الضحك إلى رعشات بدنية نزقة شملتنا جميعا حتى أبى هو الآخر وحتى مبروكة الشيالة نفسها ..

وكنا نظن أننا قد استرحنا إلى الأبد من شبشب مبروكة الشيالة ، لكننى فى صباح اليوم التالى فوجئت بها تنادينى وتقرصنى من أذنى آمرة إياى فى جدية وجهامة أن أخطف رجلى إلى دار عمتى سعدية وأحضر لها الشبشب ، فلم أجد مفرا من الذهاب ، ولما سألت عمتى سعدية عن شبشب مبروكة الشيالة ابتسمت واخرجت من البوريه شبشبا نصف قديم أمرتنى أن أدسه فى عبى وأعطيه لجدتى مبروكة . فعدت به طائرا ووضعته بين يديها فى حضرة أبى وبعض أعمامى قائلا لهم ما حدث ، فراحوا جميعا يتفرجون عليه ويتفحصونه بدقة كأنما يقيسون حجم الهدية بالميزان الحساس أو كأنهم سيشترونه بأغلى الأثمان . أفتى أبى بأنه محتاج إلى لوزة صغيرة فى الجنب تدارى هذا التآكل ، وأفتت أمى بأنه

محتاج نصف نعل ، وصرح عمى بأنه يكفيه مسمارين فى النعل ومسمارين فى الكعب ، ثم قالوا لها جميعا كأنهم يتنازلون عن حق كبير لهم : « زى بعضه بقى البسيه وخلاص .. مبروك ع الأرض » . وقالت مبروكة الشيالة : « ألبسه إزاى بقى ما انتوا شركتوه » . وقال أبى : « معلهش تصليح بسيط ويبقى عال دا جامد قوى » . وهكذا انضم شبشب مبروكة الشيالة من جديد إلى صرة الأحذية التى يتعين على أن أذهب بها إلى العتقى فى سوق البلد أو فى داره أو عند المسجد الجامع إن كنا يوم جمعة .

عم « محمود عيد » كان هو العتقى الوحيد فى بلدتنا رغم أنه ليس له دكان ، فدكانه هو بيته ، حيث ندخل من العتبة فنراه يفترش وسط الدار ، جالسا بجسمه الضخم وكرشه الكبير فوق مقعد واطىء عليه شلتة صلبة مزيتة ، وبين ركبتيه سندان عبارة عن قضيب من الحديد معووج عوجة ممتدة إلى الأمام مبططة ، يدخلها فى بوز الحذاء جاعلا النعل فوق ، وطاولة صغيرة محندقة قديمة متآكله عليها أكوام من المسامير الدقيقة وعجينة لاصقة وشاكوش ومخرازين أحدهما سرح والاخر ملتو ، وبضع كرات من الدوبارة ، وقطعة شمع يشمع بها الفتلة بعد لضمها فى إبرتين ، إذ أنه يخرم الجلد والنعل بالمخراز ثم يدخل الإبرتين متقابلتين فى نفس الخرم واحدة من الداخل والاخرى من الخارج ويشد الفتلة جيدا ، ثم يعود فيدق بالشاكوش فوق الخياطة أو فوق مسامير النعل ، وحوله كومة من قصاصات جلدية مختلفة الأشكال والألوان والأحجام مخيطة فى بعضها كلما احتاج إلى لوزة قصها من إحدى القصاصات ، وكومة أخرى من الأحذية الكالحة المتفتقة التى لا يمكن للمرء أن يصدق بأنها سوف تدخل فى الأقدام من جديد لتمشى بها فوق الأرض ، والمؤكد أن عم محمود عيد سيحتاج منها إلى قطع غيار يصلح بها أحذية أخرى ..

كنت أحب عم محمود عيد مثلما يحبه كل الناس ، وأجد متعة كبيرة فى الجلوس بجواره ريثما ينتهى من إصلاح حذاء أبى على الأقل ليذهب به إلى شغله ولا بأس من ارجاء الباقى من الأحذية يومين أو ثلاثة كما يحب . أتفرج عليه كيف يعالج ثقبا أو فتقا فى جانب من وجه الحذاء بحيث يستطيع إخفاءه عن الأنظار ما أمكن . إنه يؤجل تركيب لوزة لحين الوثوق من أن الخياطة المجردة للفتق سوف لن تفلح فى جمعه وتمتينه ، فرغم أن الفتوق دائما أوسع من قدرته على العلاج بدون لوزة ، فإن صاحب الحذاء ما يكاد يرى اللوزة حتى يكفهر وتحمر عيناه ويبرطم : « عملت لوزه ليه ؟ آهى كده حتبان وحيبقى شكلها غلط » . يؤمن العتقى على كلامه مؤكدا أنها بالفعل مثل الدمل فى وجه الحذاء ولكن ما حيلته ؟ ولكى يرضى صاحب الحذاء يروح يضرب بالشاكوش فوق اللوزه حتى يبططها قدر الإمكان ويجعل خيط الغرز يغوص فى لحم الجلد ويداريه بمزيد من الصبغه . وقد علمت من طول جلستى بجواره ومشاهدة احتياجات الزبائن واحتجاجاتهم أن العيب لا يمكن مداراته بدق شاكوش أو ثقل صبغه ، يظل العيب لوزة منتفخة فى الجنب كدمل قبيح أو غرزا تبدو خيوطها محفورة فى النفس . لذلك أصبحت أكره منظر اللوزات ومنظر الغرز البارزة فى أى شىء .

ثم إننى قللت من سخطى على مبروكة الشيالة إذ وجدت فى جوار العتقى محمود عيد كثيرا من أمثالها رجالا ونساء كفيلين بتطليع دين العتقى من الطلب المستحيل ، وكنت أهز رأسى موافقا فى صمت كلما تزربن العتقى وسب وشتم فى الزبائن ذوى الرؤوس الناشفة : « الواحد منهم يتصور أن بإمكانى إعادة الحذاء كما كان يوم اشتراه .. بهائم ترتدى أحذية فكيف لا تذوب .. يخوضون بها فى الوحل والغيطان ويمشون كخطو العفاريت .. أقدام لم تتعود على لبس الحذاء .. إن الحذاء لا يذوب من طول الزمن ولا من كثرة الاستعمال ولا من وعثاء الطريق بل تذوب من مس أقدامهم المفرطحة المتشققة التى جبلت على

الحفاء وعلى لحنين إلى ملامسة الأرض .. ما من أحد فيهم مهما كان مترفها إلا ويضيق بزنقة الكعب فى الحذاء فيطوى مسند الكعب ويجعل من الحذاء بلغة يسهل خلعها ويسهل على القدم التحرك داخلها .. يذوب الحذاء من منطقتين ، من موضع أصبع القدم الصغير حيث أنه ليس أصبعا كأصبع خلق الله بل قطعة صلب مدببة تنخر فى جلد الحذاء حتى تفتقه فى مشوار أو مشوارين ، ومن البوز ، حيث يضرب الواحد منهم فى سيره خبط عشواء ، فهو ينقل الخطو كيفما اتفق وليرتطم بوز الحذاء فى صخرة أو نتوء أو درجة سلم أو حتى جدار يتفتق البوز بعد أن يذوب النعل من تحت الجلد ، ثم يتآكل الكعب غيظا وغضبا من سوء بخته تحت هذين الكعبين الصخريين فيذوب حسرة وألما .. ويجىء الهلف منهم كالشحط ليطلب منى أن أعيد له الحذاء جديدا كما كان .. هذه البلغة مثلا ماذا أفعل لها وقد تآكل ثلاثة أرباع نعلها .. يلزمها نعل كامل ، وثمن النعل الكامل يكاد يقترب من ثمن بلغة جديدة .. إذن فعلى أن أصنع له نعلا من الكاوتش الثقيل وفى هذه الحالة سوف أدقه بالمسامير لابد .. » ..

يلوى صاحب البلغة شفتيه فى اشمئزاز ويقول فى فجيعة :

ــ معملتهاش خياطه ليه ؟

يعتدل محمود عيد نصف اعتدالة كأنه سينبىء بشىء سبق أن قاله عشرات المرات :

ــ الخيط ما يستناش فى الكاوتش ياآبا .

وحقيقة الأمر ياعم محمود إنك تستسهل دق المسامير عن الخيط بالأبرة . هكذا أسأله فى بساطة . فينظر لى نظرة ذات معنى مصحوبة بابتسامة من انكشف ، يقول : « أى والله ياابنى يعنى إنت بتقول فيها ؟ .. ما هو أزيد من القرشين تلاتة مش حيدفع .. ودى عشان أخيطها بالأبرة والمخراز عايزه لها نص يوم .. أشتغل نص يوم بقرشين

صاغ ؟ طب وده يبقى عدل منين ؟ » ..

كل من تعارك مع محمود عيد العتقى أو رفع صوته عليه يعرف مثلما يعرف محمود عيد أيضا أنه عائد إليه لا محالة . ولهذا فهو يدق على المسامير كأنه يدق على كل تحد يمكن أن يواجهه :

ـــ « صنف ابن العرب والمصرى بالذات حمال آسيه .. أو قل أنه عدم المؤاخذه تعود على الحمورية .. مع إنه ذكى وليس حمارا أبدا .. إنه يشبه الحمار فى قدرته على احتمال الأحمال الثقيلة .. ولا يبالى .. يمشى فى اليوم الواحد عشرة آلاف كيلو رائحا غاديا .. وكل ما هنالك أنه إذا ما جلس تأوه بعمق ، ثم يهون عليك أثر الآهة قائلا : أصل ياأخى الجزمة فيها مسمار تاعبنى قوى .. وهو صادق .. ففى الجزمة لابد أكثر من مسمار ينغزه بسنه فى راحة كف الرجل أو بين الأصابع أو فى أى مكان .. يدخل الواحد منهم على لاهثا يتصبب العرق من جبينه ، يجلس على الأرض أو يقف مترنحا ويخلع الحذاء وهو يكاد يدمع : والنبى تدق لى على المسمار ده خبطتين .. حاضر .. ادخل يدى فى الحذاء لأتحسس رؤوس المسامير .. تصطدم بأكثر من رأس بارز .. أدق فوقه حتى يختفى تماما .. ثم أعطى الحذاء لصاحبنا فيلبسه ويمشى ليفاجأ بأن أسنانا أخرى قد برزت من جديد وراحت تنغزه فى قدميه .. إن المسامير لا تدق فى الجسم الرخو أبدا .. إنها لا تستقر إلا فى جسم صلب .. أعرف هذا وأختار الكاوتش الناشف الذى لا يفهمه الجهلاء هنا إذ هو كاوتش طائرة .. صحيح إنه سوف يتشقق بعد مشوارين أو ثلاثة ولكن ما باليد حيلة » .

على أن أهم شيء علقنى بشخصية محمود عيد العتقى كان وعدا قطعه على نفسه ذات يوم حينما بكيت لأبى أمامه طالبا حذاء مثل أخى التلميذ ، فلم يهتم أبى لبكائى فانتحبت فصالحنى عم محمود عيد بأن قام وأخذ مقاس قدمى بالمازورة وكتبه فى ورقة ، وحلف برحمة أبيه أن

يفصل لى حذاء أبيض على بنى مثل حذاء أبى بالضبط ، ولما نظرت فى عينيه مدققا ولم أجد فيهما كذبا صدقته ، وبت أتحمس لمشوار العتقى كل بضعة أيام لكى أذكره بوعده وأقضى معه ساعات طويلة أتخيله فى كل لحظة منها وقد نهض من جلسته الأبدية ليحضر لى الحذاء من مكان ما داخل داره الواسعة ..

وذات يوم كنت أمر صدفه فى شارع داير الناحيه فلفت نظرى دكان جديد مطل على الشارع يقول لك بالفم المليان : أنا دكان فاحسدنى ، ذلك أن أصحاب الدكاكين فى بلدتنا مصابون بعقدة الدكان ، إذ أن معظم دكاكينهم كانت فى الأصل منادر أو غرف مطلة على الشارع وإفتتح لها باب . أما هذا الدكان فهو دكان صريح ؛ ذلك كان دكان الأسطى خليل الذى عرفت أن مهنته تفصيل الأحذية الجديدة ، كانت حوائطه تمتلى بقوالب أحذية من الخشب الصلب الناعم تتعلق متجاورة بمسامير . كنت أدهش من منظرها وأحاول معرفة دورها ، لذلك سعدت يوم تلكأت أثناء عودتى من المدرسة ورحت أنظر جيدا داخل الدكان ، فرأيت بعضا من هذه القوالب ملفوفة بجلد مشدود عليها بمسامير متجاورة كشعر القنفد ، ومتراصة على طاولة صغيرة كطاولة عم محمود عيد ، حافلة بنفس ما تحفل به ، خلفها يجلس الأسطى خليل بجسمه التخين المربع ووجهه الأحمر الغليظ الذى يبك منه الدم ويتساقط عليه العرق مدرارا على الدوام فيما هو يتنفس بصعوبة وصدره يعلو ويهبط ، والمريلة المزيته الكالحة تتدلى من حول عنقه مغطيه كرشه المستدير . كان أبهج شىء ضحكت له طويلا هو اكتشافى أن الأسطى خليل يجعل من كرشه مسندا متاحا ، حيث يضع فوقه القالب المشدود عليه الجلد ويروح يدق المسامير بالشاكوش فى طرقات شبه موسيقية : ط ط ط طم .. طم فإذا إنتهى من الفردة رماها وتناول شقيقتها وهكذا . كان صامتا على الدوام ، حتى إذا ألقى عليه السلام أحد رفع وجهه فيتصاعد شخيره ، ويبربش بعينيه مغمغما

بهمهمة غير مفهومة ثم يستأنف الدق من جديد .

كان الأسطى خليل العتقى حريا بأن يستهوينى أكثر من محمود عيد ، فهو الذى يفصل الأحذية الجديدة وربما فصل لى حذاء بسعر زهيد يستطيع أبى دفعه . لكن الأسطى خليل كشف بعد أيام قليلة عن شخصية عجيبة . لم يكن فى الأصل من بلدتنا إنما هو قادم من إحدى المدن بعد أن ضاق رزقه فيها لكثرة الحذائين ، فجاء بلدتنا متعشما فى رزق وفير حيث لا حذّاء غيره فيها ، ويقال أنه اختار بلدتنا لصلة نسب قديمة أتاحت له استئجار هذا الدكان . ولم يكن له زوجة إنما كان له ولد شاب إسمه عبد الصمد ، لا يفارقه فى معظم الأوقات ، يشارك أباه فى تركيب النعال ، ويوالى كنكة الشاى على وابور السبرتو ويتركها تغلى حتى يتبخر نصف الماء ثم يصب لنفسه ولأبيه كوبين من الصاج تتصاعد منهما رغوة وفقاقيع مخملية ، يشفط كل منهما باستمتاع كبير ، أما عبد الصمد فيشفع الشفط بشد نفس من الدخان . كان عبد الصمد رفيع الجسد مصفر الوجه مسبل العينين إلا عندما يضطر إلى التحديق فى الطريق ، وكان لطيفا ، تظنه مريض النفس من فرط اعتلال الجسد والوجه لكنك إذا جالسته كشفت عن ضحوك يرسل النكت الجديدة على الدوام ، ويقال أنه عائد من المدينة بمحصول وفير منها . وكل شبان البلد كانوا يصاحبونه ومع ذلك يتحرجون من مخالطته لسبب وحيد هو شربه للسجائر أمام أبيه وكانوا يعذرونه ملقين اللوم على تربية المدن التى هى فى أنظارهم دائما فاسقة فاجرة كافرة . الطريف أن الأسطى خليل هو الآخر كان يخشى على ابنه من مصاحبة أولاد البلد الذين هم فى نظره لا أخلاق لهم فضلا عن أنهم جهلاء غليظو الألفاظ وقد يفسدونه أو على الأقل يعطلونه عن العمل ، والعمل فى نظره يعنى الولاء للقعدة فى الدكان حتى ولو لم يكن ثمة من عمل فيه . يجن جنونه إذا نظر حوله فجأة فلم يجد عبد الصمد أو لو غاب قليلا فى مشوار أرسل إليه ، حينئذ يزيح نفسه عن الطاولة ويخرج إلى الشارع ، فيقف أمام الباب

قليلا يبربش بعينيه فى عمق الطريق ، ثم يتململ زاحفا شيئا فشيئا على مهل ، ويظل يدفع جسده القصير الأكرش ، وينتفض وجهه الغليظ الملىء بالشعر ، ولاينى يصيح بين كل خطوة وأخرى فى صوت مسرسع مشروخ : « ياعبد الصمد .. ياواد ياعبد الصمد » . فإذا لمحه جالسا مع أحد أو لاعبا مع كوكبة أتبع صياحه « ياعبد الصمد .. ياابن ديك الكلب » ، ونضحك نحن ونروح نقلده باتقان فيضحك كافة المشاهدين . ويتضح أن عبد الصمد كان قد سمعه منذ أول صيحة وحلا له أن يتجاهله أو يدبر للهروب منه ، لكنه بصوت مشروخ مثل صوت أبيه وأعرض يصيح فيه بكل غيظ وحقد : « عايز إيه .. عايز منى إيه .. غور بقى من قدامى وأنا جاى وراك .. حاروح منك فين » . فيقف الرجل منتفضا من الغضب ويزداد وجهه احمرارا وعينيه بربشة واتساعا ، يتفتف قائلا بعصبية وكرامة مهيضة : « إخص عليك وعلى تربيتك .. اتفوه » ، ثم يستدير مستأنفا الرجوع فى بطء وهو يمسح شفتيه من بقايا البصقة ، ويبقى عبد الصمد متكورا على نفسه لبرهة وجيزة ثم يلوى شفتيه فى تعجب وحيرة ولا مبالاة ، ثم يلحق بأبيه فيصل الدكان قبله ..

ولسنا نعرف على وجه التحديد لماذا وقف حال الأسطى خليل وحل به الكساد ، لدرجة أنه كان يمضى النهار وشطرا كبيرا من الليل جالسا ينش الدبان عن وجهه بمنشة عتيقة متآكلة الأطراف . المثير للغرابة أن أهل بلدتنا يقدسون « التفصيل » تقديسا لا يطاوله إلا احتقارهم لمبدأ « السوق » واشمئزازهم من الكلمة نفسها . الرجل منهم حين يلبس بلغة جديدة يجتهد أن يراها الأخرون تأهبا لاستماع السؤال التقليدى الذى لابد أن يسأله كل من يراها : « سوق ؟ » هنا يلوى صاحبها رأسه فى استنكار صائحا كأنه يدفع عن نفسه تهمة مشينة : « لا .. تفصيل » ويمط حرف الياء إلى ياءات عديدة تؤكد مدى صدقه واستنكاره لشغل

السوق الذى يباع فى السوق جاهزا داخل علبة كرتونية يرى أهل بلدتنا المغرمون بالتفصيل أنها من قبيل النصب على الزبون والضحك عليه بالعلبة . أذكر أن أهل البلدة حين فوجئوا ذات صباح بعيد بدكان الأسطى خليل مفتوحا للتفصيل الخاص توقعوا كسادا محققا يحل بعم محمود عيد . وكان الوضع يشى بذلك فعلا حينا لاحظوا أن دكان الأسطى خليل قد انشغل ببضع أعداد من الأحذية الجديدة كان أصحابها يذهبون إليه فى مهرجان ، مرة لأخذ المقاس وأخرى للضبط وثالثة للاستلام ، وكانت الأحذية المرصوصة فى الدكان تحت التشطيب معروفة لكل فرد فى البلدة ، فهذه جزمة فلان وتلك بلغة علان وذاك شبشب فلانة . ولقد خرجت من الدكان دفعات كثيرة كان معظمها لأعيان من بلدتنا والبلدان المجاورة التى تعتبر يوم سوق بلدتنا يوم سوقهم ، فيزورون بلدتنا بالمحاصيل والدجاج والجبن ويخرجون منها بأثواب القماش ولفائف العجوة والبرتقال والهريسة وأم الفلافل الساخنة . وقد ألفنا أن تزدحم جميع دكاكين بلدتنا يوم السوق إلا دكان الأسطى خليل ، لم يعد يزدحم مطلقا لا فى يوم السوق ولا فى غيره من أيام ، بل أصبح من المألوف أن يبدأ يوم السوق بارتفاع صوته المسرسع المشروخ مجلجلا رغم ذلك مغطيا على نداءات الباعة وصيحات الفصال ، يلعن الباعة الذين يصرون على فرش بضاعتهم أمام دكانه ليتجمع زبائنهم يسدون عليه باب الرحمة ، وكلما أفلح فى إجلاء واحد فوجىء بغيره ، فيشرع فى الزعيق من جديد بكل عصبية وانفعال وتوتر ، فيما يكون عم محمود عيد افترش مكانه المعهود فى مدخل السوق يتلقى وفود الصرم والبراطيش القادمة مع رواد السوق من الغرباء ، حيث يصلحها على الفور بصبر وحرفنه يساعده ابنه حنفى ، ويتلقى العطايا كل ثانية حتى يمتلىء درج الطاولة امتلاء ينافس أدراج الباعه . بجواره مباشرة يتربع صانع الأختام القادم من المركز ، أمامه طبلية مفروشة يرتص فوقها عدد من الأختام النحاسية الخام ، وفى

حجره دفتره الكبير المستطيل كدفتر التموين ، إذا جاءه من يطلب خاتما سجل اسمه فى الدفتر ممهورا ببصمته ، ثم يروح يحفر له اسمه بمبرد على أحد الأختام ، ثم يختم به فى الدفتر بجوار البصمة ثم يسلمه لصاحبه . كان هو وعم محمود عيد صديقين حميمين إذ يجلسان أمام بعضهما هكذا طوال ثلاثين عاما أو يزيد ، وكانا بارعين فى التنكيت على بعضهما ويمسكان لبعضهما على الواحدة خاصة عند ازدحام أحدهما بالزبائن . وكان صانع الأختام يتباهى على عم محمود عيد قائلا فى تفاخر إنه يصنع للناس شخصيتهم ، فالشخص دون الختم لا يساوى شيئا إذ أن خاتمه هو توقيعه هو مصيره . فيرد عليه عم محمود عيد قائلا إن الختم الحقيقى هو ذلك الذى يصنعه ، فنصف النعل هو البصمة الحقيقية للإنسان إذ هو يستطيع أن يعرف كل إنسان من خلال نعله فحسب ، يكفى أن يغمض عينيه ويتحسس النعل لينطق باسم صاحبه فى الحال ، ولا يقطع عليهما حبل المفاكهة اللذيذة سوى هدير صوت الأسطى خليل الذى يصب على السوق كله جام غضبه ناضحا بالغل والحقد الشديدين ..

شاعر البلد لا يسليها هذا صحيح ، مثلما أن مغنيها لا يطربها . ولقد حدث ، إذ كانت عملية تفصيل الأحذية هذه فى نظر أهل بلدتنا أمرا محفوفا بالغموض اللذيذ ، فالواحد منهم يذهب إلى المدينة ليعطى مقاسه للحذاء ولا يعود إليه إلا بعد أيام ليتسلم حذاءه ، فهو إذن يرى الحذاء وهو حذاء بالفعل معد للبس مباشرة مدهون ولامع وجميل . أما عند الأسطى خليل فإن الشخص كلما فات على الدكان حود ليستحث الأسطى على الانهاء ، فيرى الأحذية وهى فى مرحلة التفصيل فى حالة لا تسر ولا تقنع أحدا بجدية التفصيل ، فيخيل إليه أن الأسطى خليل « يطصلق » فى شغله ، ومهما أتقن الأسطى خليل وأعطى حذاء ممتازا فإن صاحبه لابد أن يظل ينظر فيه بتشكك وعدم اقتناع ، لوقت طويل ، أما إذا تفتق الحذاء بسرعة ـــ وكثيرا ما تفتق ـــ فإن صاحبه

يعود به إلى الأسطى خليل ويظل يتعارك معه ساعات طويلة تنتهى بأن يرمى صاحب الحذاء حذاءه على الطاولة أمام الأسطى خليل قائلا : « الجزمه دى ما تلزمنيش » ، فما أن يستدير بظهره حتى يكون الأسطى خليل قد طوح بالحذاء على طول ذراعه فى قلب الشارع صائحا كالمواء المجسد : « ولا أنا .. هى دى رجلين بتاع لبس جزم برضه ؟ .. دا جلد رجليك نفسه متفتق » . يضطر صاحب الحذاء إلى لم حذائه وإرسال الشتائم المقذعة إلى الأسطى خليل ، الذى لا يعيرها أذنا صاغية ويظل صاحب الحذاء يلعن طوال الطريق متأبطا حذاءه ، فكلما مر بقوم إستفسروه عن الغضب ، فيتوقف ويحكى ، فيلوون شفاههم ويضحكون ، وهكذا حتى يصل إلى دار محمود عيد فى حارة سد متفرعه من شارع الزغالوه ، حيث يرمى بالحذاء أمامه مستكملا شتائمه فى الرجل الضلالى الغشاش الذى لن يرد على جنة . يعرف محمود عيد المسألة ولهذا لا يعبأ بالأمر لأول وهلة ، يظل برهة طويلة مبديا عدم الاهتمام إلى أن يفرغ مما فى يده ببطء ، يتناول الحذاء المتفتق ويقلبه ظهرا لبطن ثم يلوى شفتيه فى اشمئزاز وطيبة مغمغما :

ــ « سبحانك يارب .. كل شيء جديد بيقدم ويبقى حلو .. إلا اللى يقدم وهو لسه جديد .. اخاف منه موت .. إذا كنت إنت لسه جديد جاينى أعمل بيك إيه .. إنت لحقت تقدم ؟ .. الأكاده بقى إنى ما أعرفش أصلح غير القديم بس .. يبقى سهل .. معروف أنه قديم والتصليح فيه شرعى ويبقى مقبول .. إنما الجديد أصلحه إزاى ؟ ما أقدرش طبعا أرجعه جديد ، أصله لو كان جديد جديد حقيقى وأصيل مكانش يقدم وهو لسه جديد .. وعشان هو لسه جديد وأنا أصلح فيه حيطلع من تحت إيدى قديم رسمى ، مختوم بالختم .. وترجع تقول محمود عيد شوه منظر الجزمه » .

ثم ينحى الحذاء جانبا كأنه لم يقتنع بقبول الصفقة بعد . وهنا يقول

صاحب الحذاء المعطوب :

ــ « ياعم اللى إنت عايزه .. بس عايزها تبقى نضيفه وحلوه » .

يشوح محمود عيد بأصبعه الغليظة الملطشة بالصبغة والقشف صائحا من خلال حشرجة فى صدره :

ــ « أهو شفت .. أديك إنت قلت عايزها نضيفه .. أنا ما أقدرش أخبى العيب أبدا مهما كنت أسطى .. بالعكس .. دا يمكن بابين العيب أكثر » .

هنا يحس صاحب الحذاء بالاحباط وينطق وجهه بالأسى ، وربما دلدل شفتيه صامتا ، فإنه لشيء ممض حقا أن يكتب على المرء لبس حذاء قديم دفع فيه ثمن الجديد وأكثر .. فرحة ما تمت . لكنه بآخر ما فيه من نفس يائس : « أهو برضه همتك شويه إنت مهما كان أسطى » ، ثم يمضى مسرعا خشية أن يفاجئه محمود عيد بشيء جديد يضايقه ..

مع ذلك لم يغلق الأسطى خليل دكانه أبدا . وكان الجميع من أهل البلدة يعجبون من استمراره حيا مع ابنه المدخن الشره رغم الكساد التام . كثيرا ما سهر أقوام يتحدثون بشأنه كأنه من بقية أهلهم يحملون هموم معاشه بعد أن يشبعوه سخرية وتريقة طول الليل ، وفى النهاية يتفقون على ضرورة العطف عليه . وبالفعل يمر أحدهم على دكانه ومعه حذاء يريد إصلاحه ، وما أن يقدمه للأسطى خليل حتى ينظر إليه هذا فى اشمئزاز ويزيحه صائحا : « شيل القرف ده ياجدع إنت إجرى بيه على الصرماتى بتاعك يلا » بعدها لم يفكر أحد فى العطف عليه . وكان من سوء حظه أن شاعر الربابة الذى يتجول فى القرى والأسواق لف ذات يوم فى بلدتنا مغنيا على الرباب فى مجالس عدة أغنية أظنها من السيرة الهلالية على لسان الجازية إن لم تخنى الذاكرة ، تقول : « يادكان الأسطى خليل .. يادكان ياسيد الدكاكين .. يادكان لو كان جيبى

فيك .. يادكان دانا لأهدك وأبنيك وأعمل ترابك دوا لعيونى .. الخ » .
منذ ذلك التاريخ أصبحت هذه الأغنية سلوتنا الوحيدة . نتجمع فى كل لحظة أمام دكان الأسطى خليل ونروح نهلل مغنيين بنفس لحن شاعر الرباب : « يادكان الأسطى خليل .. يادكان ياشيخ الدكاكين » وعبثا يحاول الأسطى خليل طردنا برش المياه أو العصا ، فيضطر إلى إغلاق الدكان والسير إلى خارج البلدة ، فنزفه بقسوة عجيبة : « يادكان الأسطى خليل يادكان ياشيخ الدكاكين » ، وهو ماض أمامنا كامبراطور من الحجر لا يرتعش ولا يهتز ، إلى أن يتوغل فى الحقول فنعود إلى البلدة متفرقين ..

على أننى حينما ألحقت بالمدرسة الالزامية فى العام التالى بصندل العيد الفائت وحينما شرع أبى يفكر تفكيرا جديا فى تفصيل حذاء لى ، بدأت أذب الأولاد عن معاكسة الأسطى خليل ، وأريه نفسى عند ذلك طمعا فى إقامة جسور الود ، إذ سمعت أبى يقول : « والله حافصلها لك إن شاالله عند الأسطى خليل .. راجل بتاعنا وعلى قدنا .. وأهو يستنفع » . لكن الأسطى خليل لم يكن يعبأ بدفاعى عنه بل كان يهشنى أنا الآخر فى النهاية مما يجعلنى أعود إلى الدار تحتبس فى حلقى دموع متحجرة . وكنت كلما فكرت فى الانتقام منه تذكرت وعد أبى ونهيت نفسى . إلى أن جاء يوم فوجئنا فيه بناظر المدرسة يطلع علينا فى طابور الصباح ذات يوم ويلقى علينا بيانا لم أفهم منه شيئا ولا صحبى كذلك ، إختتمه بالتنبيه علينا بأن يجىء كل منا فى الغد ومعه قرش صاغ واحد . فلما عدنا وأبلغنا أهالينا بهذا الطلب الغريب فوجئنا بأن البلدة كلها تتكلم فى مشروع جديد إستحدثته حكومة الوفد إسمه مشروع الحفاء ، ومعناه أن الحكومة ستفصل أحذية لكل أبناء المدارس على نفقتها الخاصة فى مقابل قرش صاغ واحد يدفعه كل تلميذ لزوم المساهمة فى المصاريف ..

« طرخ » أبى على مشروع القرش أياما طويلة تلقيت بسببها زجرا وتعنيفا من الناظر ، الذى كان يمر علينا كل يوم بجسده القصير الممتلىء وجبته وقفطانه وعمامته ، وعينيه الضيقتين القاسيتين فيتوقف لدى كل واحد منا يستفسر عن مجىء القرش ، ثم يقرصنى فى أذنى كأنما فى أصابعه كماشة تجعلنى أجأر بالصراخ والعويل وهو يزأر فى قائلا : « إنتو إيه .. عايزين تتعلموا ببلاش .. كل حاجه ببلاش حتى الجزمة ؟ داهيه تسم بدنكم » . ويقول أبى حينما أنقل له ذلك : « أنا عارف قرش إيه وبتاع إيه اللى الحكومة طالعه لنا فيه ده ، ما إذا كانت عايزه تعمل خير تعمله وخلاص .. ولا يعنى الحكومة أخذت على الأخد ؟ مفيش عندها غير قولة هات ؟ داهيه تسم بدنهم هم راخرين » . فأصابنى هم وغم شديدين ، حتى كنت من فرط الشعور بالمهانة والذل أقضى الليل كله نائما دون حراك أستقبل الكوابيس المخيفة التى تشبه كلها وجه حضرة الناظر . وقد سمعتنى أمى وأنا أهذى من خلل النوم فربتت على ظهرى وبكت ، ومن عندها أفرجت عن عشر بيضات من بيض دجاجها الخاص باعتها لخاله « راضيه » التى تمر كل يوم مناديه : « ياللى حداها بي .. ي .. ض » . وقد أصررت على دفع القرش لحضرة الناظر شخصيا فلما دخلت عليه مكتبه المنعزل جوار الباب نهرنى صائحا : « إمشى عمى فى عينك .. روح إدفعه للمدرس بتاعك » . فدفعته للمدرس وأمليته إسمى عدة مرات حتى زهق وصاح فى « خلاص عرفنا بقى » .

بعد أسابيع طويلة تلقينا الأمر بالوقوف صفا فى حوش المدرسة لأخذ المقاس . فاهتزت أعطافنا وزاطت المدرسة فجأة زئيطا عظيما عجز المدرسون عن إخماده إلا بالخيزرانة النشيطة اللاسعة . فلما اصطففنا كنا نتحسس مواضع الوجع كأننا نتهرش . فيفاجئنا اللسع من جديد . فنقف متخشبين وقفة عسكرية . أمامنا من أول الصف وقف رجلان

وخلفهما هيئة التدريس برمتها . صار الأفندى الغريب ينحنى على قدم كل منا ويقيسها بالمازورة ثم يصيح برقم يدونه الأفندى الأخر فى دفتر بعد أن يسأل واحدنا عن اسمه وسنه وسنته الدراسية . أنفقنا فى هذه العملية بضعة أيام كان أهل البلدة خلالها يتسكعون حول المدرسة ويتسلقون أسوارها ليتفرجوا فى إنبهار يشوبه عدم التصديق ، فهم لم يتعودوا تصديق أى كلام تقوله الحكومة عن أى مشروع ، وتبدو وجوههم لنا عبر حديد السور كأنهم يراجعون أنفسهم فى موقفهم من الحكومة ويعلنون الرغبة فى التصديق ولكن .. أما نشوف .

ظل ذلك الحدث لأسابيع طويلة موضع أحاديث البلدة . وكان محمود عيد يقول فى صدق : « كله خير .. الجزم الجديدة عمرها ما تقطع رزقى .. بالعكس .. كل ما يكتر الجديد يبقى القديم زمانه جاى .. من مصلحتى أن الناس كلها تلبس جزم .. عشان أفضل أنا وغيرى نصلح ونصلح » . وكانت الأسابيع تتصرم وجثة الأمل فى نفوسنا تزداد تيبسا وعفونة ، فلقد إنقطع الخبر تماما ولم يعد أحد يتحدث عن مشروع الحفاء .وقرب إنتهاء العام الدراسى نبه علينا أهالينا بضرورة تذكير المدرسة بالقرش .. فقيل لنا إن خطأ قد حدث فى أخذ المقاس ، ذلك أن المتعهد أخذ مقاسنا بالمازورة فى حين أن نمر الأحذية لها نظام آخر خاص . وقد انتهت أعوام الدراسة كلها ونسينا مشروع الحفاء ولكن أبى لم ينس القرش أبدا .

إلا أن غيظى من فشل مشروع الحفاء لم يكن سببه ضياع القرش فحسب ، ولا حرمانى من الحذاء الجديد فقط ، بل لأنه أفسد على مشروع إنتقامى من الأسطى خليل . ذلك أننى بعد أخذ المقاس الشهير مباشرة مررت من أمام دكانه ، وخلفى رهط من الأولاد ، جمعتهم بشق النفس ، ووقفت أمام دكانه متحديا ألعب حواجبى ولسانى وأترقص مغنيا والأولاد خلفى : « يادكان الأسطى خليل .. يادكان ياأوسخ

الدكاكين » ، وكلما هب ملوحا بسكين الجلد ارتددت . حتى إذا ما جلس واطمأن رجعت إليه مصفقا مرددا : « يادكان الأسطى خليلى .. يادكان يافقر الدكاكين » ، وهو يجعر فى غضب حتى لتكاد عروق رقبته تنفجر « إمشى ياابن ديك الكلب .. داهيه تلعنك وتلعن أبو اللى مربينك » ، فاخرج لسانى صائحا : « اووو » ثم أجرى ، فيجرى ورائى حتى ينقطع حيله فيقف يسأل الناس عمن يكون أبى ذلك الحمار الذى لا يحسن التربية ، والناس يطيبون خاطره قائلين : « زى ابنك برضه » ، فيبصق فى الهواء تجاههم ثم يستدير عائدا ، ليفاجأ بأن أتباعى الأشقياء قد بعثروا له العدة والكراكيب فى الشارع ، فيقف متوترا يصيح باقصى عزمه : « ياعبد الصمد .. ياابن ديك الكلب » ، ثم يمسح عن وجهه شيئا أظنه بعض دموع ..

فلما فشل مشروع الحفاء تجددت فى جلسة المساء فوق سطح دارنا فكرة تفصيل حذاء لدى الأسطى خليل ، على أن تساهم أمى فى تكاليفه بنتاج ثلاث دجاجات طوال المدة التى يستغرقها التفصيل ، وتدفع مبروكة الشيالة بقية التكاليف . لكن مبروكة الشيالة اعترضت بأنها حين تستطيع أن تشترى لنفسها شبشبا جديدا فسوف تشترى لى هذا الحذاء أما أبى فقد كانت لديه ورقة اعتراض دامغة يجابهنا بها كلما ألحنا له إلى الموضوع ، تلك هى القرش الذى دفعناه هدرا ، كان يردد فيما يلف سيجارة ويشعلها ، باسطا كفيه : « إذا كانت الحكومة ما قدرتش تفصل لك جزمه أبقى أنا اللى حاقدر ؟ » ولكن الصندل الذى أستخدمه أيام الدراسة فقط واحتفظ به فى درج البوريه طوال الأجازة الصيفية قد بدأ يتفكك رغم جهود عم محمود عيد المخلصة ، نزع رقعة الأبزيم كلها واستبدلها بأخرى جديدة بأبزيم جديد ودهن القديم بلون الجديد حتى فرحنى بحق ، وضاقت منطقة الأصابع ففك جلدتها ووضع لها وصلة على شكل حلية ، وذاب الكعب فاستبدله بقطعتين من الجلد السميك وتكرمش الحزام الذى يطوق أعلى الكعب وصار كالفتلة تحفر

لنفسها مكانا غائرا ، فاستبدلها بغيرها جديدة ، وفى كل مرة يربت على كتفى ويهز رأسه فى ابتسامة « مبسوط ياسيدى ؟ إوعى تزعل » ، فأحس كأنه يبدى استعداده لأن يظل يعتذر لى إلى الأبد عن عدم تفصيله الحذاء كما وعد .. إلى أن جاء يوم ارتسم على وجه عم محمود عيد نفس الأسف والاسى ، ولوى شفتيه كما فعل إزاء شبشب مبروكة الشيالة ، ولوح بيده علامة استحالة الإصلاح ، فارتعد بداخلى عامود من الانفعال الفاجع شملنى من قدمى إلى رأسى ، وجاهدت لمنع نفسى من البكاء ولكن محمود عيد رأى الدمع فى عينى ، فمسح وجهه بكمه ومسح أنفه ثم هز رأسه فى تفكير وقال : « طيب أنا حاعمل على أخر صبرى .. أنا أصلى ما انهضش على زعلك إنت بالذات » ، ثم أمسك بالصندل الذى كان كالفرخة المذبوحة ، وصار يضم إليه قطعا قطعا قطعا حتى سلمنى فى النهاية شيئا ثقيلا جدا ضائع الملامح لا هو بالصندل ولا بالحذاء ، ولما اطمأن إلى إمكانية السير فى سلام ربت على كتفى قائلا : « خلى مبروكة الشيالة تجيب لك واحد جديد بقى .. قول لها كفايه كده حتحوشيهم لأمتى ؟ » ..

لكننى لم أقل هذا بالطبع لمبروكة الشيالة ، إنما قلته لأمى وبقايا دمع متحجر يعوق انطلاق صوتى . ويومها نظفت أمى زجاجة المصباح جيدا كعادتها لدى قدوم كل مساء ، لكنها بدلا من أن تضعه على رفه المعهود وضعته على الطبلية أمامى ، واستكتبتنى خطابا إلى أمها ـــ جدتى نفيسه ـــ فى المدينة التى تعيش فيها طرف الحاج كامل الطنطاوى تاجر الأكلمة والبطاطين ، بعد التحيه والسلام والسؤال عن صحتكم الغاليه أعرفك ياأمى العزيزه الغاليه إننى بخير والحمد لله على الصحة والستر لا ينقصنا إلا مشاهدة رؤياك الكريمة وأوصيك ياأمى والنبى يوصيك ياساكنة المدينة أن تحضرى حذاء هدية لرمزى حيث أنه الآن فى سنة ثالثة فى مدرسة البلد إسم النبى حارسه وصاينه والمثل

يقول أعز الولد ولد الولد وإنت ياأمى تحبين رمزى وتفرحين لدخوله المدرسة فلابد من كل بد أن تحضرى له حذاء جديدا من سوق المدينة يتباهى به على الأولاد ويقول ستى نفيسه أحضرته لى من المدينه وختاما

لك ألف ألف مليون سلام إنت والناس الذين تقيمين معهم خصوصا الحاج كامل الطنطاوى والحاج عبد الفتاح الطنطاوى وعبد الخالق أفندى الطنطاوى وكل أولاد الطنطاوى كبيرا وصغيرا وكل من يسأل عنا نهديه ألف مليون سلام ومن عندنا يسلم عليكم زوجى العزيز وكذا مبروكة الشيالة وأولادها فردا فردا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... ملحوظه : « لابد ياأمى أن يكون مجىء الحذاء معك فى أول زيارة فأنت لم تزورينا من مدة طويلة والسجين يرى فى السجن أهله وأنا لا أراك والسلام ختام وسلام خصوصى من كاتب هذا الخطاب ابن بنتك رمزى ونوصيك بالرد العاجل والسلام ..

لا ندرى كم استغرق الخطاب من زمن فى الوصول . لكننى منذ أودعته صندوق البريد ولمدة شهور طويلة ظللت أقضى الظهيرة كلها أمام دوار العمدة حيث يلتصق بجواره صندوق البريد الوحيد فى البلدة ، وحيث يجىء سيد أفندى الطواف بلباسه الذى يشبه لباس العسكرى السوارى والفرسان ، بقبعة وحمار عفى يمتطيه وتحته خرج ملىء بالخطابات ، يفتح الصندوق ويستخرج ما بداخله ويختمه ويضعه فى فوهة الخرج ، ومن الفوهة الأخرى يخرج حزمة من الخطابات ويروح ينادى أسماء أصحابها فى رهط من الواقفين فى انتظاره ، والجار يتسلم خطاب جاره أو قريبه ، وسيد أفندى الطواف يعرف أن هذا قريب ذاك معرفة جيدة فى كل البلاد التى تقع فى خط طوافه . وبين كل إسم واسم كنت أبرز رأسى مجنحا نحوه كأننى استدره خطابا باسمى ، حتى بات الرجل يحفظنى ويغمرنى بابتسامة خاصة تشى بأنه أيضا يتمنى ورود خطاب باسمى ..

إلى أن صحوت من النوم ذات عصرية سعيدة على زئيط غير عادى فى مندرتنا واسم آل طنطاوى يتردد مصحوبا بصوت نسائى رقيق أكثر أنوثة من صوت أمى وإن كان نفس النبرات فعرفت أنها جدتى وقد عادت ، فقفزت من وضع الاسترخاء التام إلى وضع الوقوف فى قفزة بهلوانية ، ثم اندفعت أجرى عابرا الدهليز حيث الفرن ومحل الراحة إلى المندرة حيث الكنب البلدى العريض غير المنجد والمفروش بحصائر ملونة . كانت جدتى نفيسة متربعة على الكنبة ، ضئيلة الجسم لكنها مشعة بالأنوثة الشابة الطاغية حتى لقد تضاعف حجمها وبدت أكثر صبا من أمى التى تكورت بجوارها كقطعة بائسه تتلمس الدفء لتسكن هكذا كأنها وجدت أخيرا وبعد طول عذاب من سيحمل عنها همومها وما أكثرها . وكان أبى يجلس على الكنبة المواجهة وجواره رجل مهندم فى ثياب بلدية ثمينة ، أسمر الوجه مستطيله غليظ الشفتين بشارب كثيف ، يتكلم بصوت عريض يعكس مع غلظ شفتيه إحساسا عظيما بالشبع . عرفت إنه الحاج عبد الفتاح الطنطاوى أوسط أخوال جدتى نفيسه جاء يوصلها وسوف يعود حيث تنتظره فى الخلاء عربة حنطور بالايجار لتعود به إلى المحطة . كان فى الأمر ثمة صياح يشبه العراك تتزعمه مبروكة الشيالة المتربعة وحدها فوق الكنبه الثالثة جوار الباب ، ويشارك فيه أعمامى الذين جاءوا للسلام ولم يجرؤا على الجلوس فى حضرة أبى ولو على سبيل الظهور المسرحى أمام الضيوف . ألقيت نفسى فى حضن جدتى نفيسه التى تهيأت لاستقبالى باسمة بهجة مشرقة الوجه مرتفعة الحواجب الثقيلة كأنها عاشقة الأساطير تستقبل عشيقها الشاطر حسن . واستطاب رأسى ملامسة جسدها البض الصبى فسرت فى عروقى مشاعر غزيرة لم أعهدها فى حضن أمى . وكان صدرها الملموم والرائحة الذكية المتصاعدة من جوفها ويدها النظيفة اللامعة كل ذلك يجذبنى نحوها وأكاد أغيب فى داخلها . قلت لنفسى كيف لا يحدث هذا حين ألقى بنفسى فى صدر أمى ؟

ها هى ذى تسند رأسها فوق كتف أمها ، ها هى ذى هى الأخرى تطلب ما لم أجده أنا فى حضنها .

يقطع أبى حديث العراك الصاخب صائحا فيها وحدها : « ماتقومى يامره . بسرعة حضرى العشا وأعملى شاى الأول » . تتململ أمى ويبدو عليها شعور بقهر دفين ويبدو عليها أيضا انها سوف تقوم بكل صدر رحب ، بل هى تقوم فعلا ويدب فيها نشاط يثير إشفاقى إذ أرى تناسق جسدها وقد تدهور وترهل وآب إلى كتل لحمية تضيف إلى الإرهاق ثقلا ، كدت استغرق فى النوم كأننى لأول مره ألتقى بأحضان أم بل كأننى أكتشف معنى الأم . وفيما بين النوم واليقظة كانت ضجة العراك تبلغنى مسببة لى نكهة من السعادة وبلغنى بكل وضوح أن مبروكه الشيالة قد حسمت الأمر وكتب لها النصر المؤزر ، فمن ذا الذى يستطيع أن يبقى على موقفه أو على رأيه فى مواجهة مبروكة الشيالة حتى ولو كان الحاج عبد الفتاح الطنطاوى نفسه ؟ . وبناء عليه تراجع ناس فى حلفانهم وقرر الطنطاوى أن يبقى مسافة تناول العشاء . ولأن مبروكه الشيالة تعودت على النصر التام ويلذ لها أن تمعن فيه فإنها لم تكتف بتعطيل عودة القافلة لتناول العشاء بل شرعت تساوم على الاغراء بضرورة المبيت لولا أن نحنحات كثيرة ــ كأنها غير مقصودة ــ بلغتها من جهات متعددة فعالجت اندفاعها علاجا غاية فى اللطف قائلة فى أسى كأنها قهرت على فعل شيء أسيف : « بقى ما كنتوش تباتوا الليله ؟ . ثم أمسكت عن الحديث فى هذا الأمر ، وشرعت تستحث جدتى ــ من طرف خفى ــ على الكشف عن محتويات الزيارة التى كانت قد سربت إلى الداخل معبأة فى حقائب واخراج وقفف . على أن جدتى نفيسة وإن كانت لا تقوى على مبروكة الشيالة فى صلابة الرأى والمثابرة على تنفيذه فإنها ــ جدتى نفيسه ــ أشد من مبروكه الشيالة دهاء ومكرا ، وهى لن تكشف لها مطلقا عن أى شيء جاءت به لابنتها ، لكنها فى نفس الوقت تريد أن تريح مبروكه الشيالة وتعزف لها على الأوتار التى تحبها

أنغاما تحبها هى ، فربتت على رأسى فى حنان قائلة : « قوم ياحبيبى قيس الجزمة بتاعتك كده » وكأن مسا كهربائيا أرعدنى ، إذ انتفضت قائما أجرى نحو الداخل فى حجرة نوم أبى وأمى حيث ننام نحن مع مبروكة الشيالة ..

وجدت أمى قد ذبحت أوزة وبطة صغيرة وأشعلت الكانون تحت حلة الماء استعدادا لتنظيفها ، وريثما تغلى المياه لم تصبر أمى فتسللت وفتحت الخرج لتخرج منه عديدا من اللفائف بالجرائد والدوبارة ، فتفك عنها اللفة فى لهفة ثم تصيح : حذاء لابيك ، ثم تفك الأخرى ، حذاء لعمك لابد ، وهذا لعمك الأخر ، وهذا وذاك وذلك .. إنشا الله ما أشتهيكى ، وتفك لفة : وهذا لى .. إنشا الله ما أشتهيكى .. وهذا الشكربين لمبروكه الشيالة .. وأما هذا فحذاؤك يارمزى ، ولكنه يبدو كبيرا عليك ، ثم بدا عليها غم لا يستطيع احتماله بشر ، لكنها قلبته بيدها فى قعر الخرج وبش وجهها قليلا ثم خرجت يدها بلفة صغيرة انبسطت لها ملامح أمى قائلة : « لابد أنه هذا ، ثم فكته بسرعة وارتعاشه وصاحت : إنه هو .. قس » ، وأمسكت قدمى بيد مرتعشة بالفرح ثم هيأت لى كتفها لأستند عليه ففعلت ، كان الحذاء عظيما غاية العظمه ، حذاء بنى لامع جدا وذو رقبة وأستك فى جنبها الداخلى ، وساعدتنى أمى « بفشخ » حنك الرقبة حتى سربت قدمى بداخلها ثم شدت أعلى الرقبة فاستقرت قدمى فى الحذاء على أرض ناعمة مريحة دافئة ، ثم استقرت الأخرى ومضيت خطوتين رائحا غاديا يكاد الكعب الجلدى يرفعنى عن الأرض ويهدهدنى . وخيل إلى أننى قد تغيرت تماما وصرت شخصا آخر يريد أن يخطو فى احترام ورزانة وعياقة وازددت إحساسا بنفس وبسحر العياقة حين مزكت الجزمة تحت قدمى بذلك الصوت الموسيقى الذى كان يتباهى به أرباب الأحذية إذ يقول واحدهم فى تفاخر أن فى حذائه مزيكه ، ويوصون الحذاء بوضعها فى كعب الحذاء ليئز كلما داست الكعب فوقه . رغم الانتشاء العظيم الذى كنت فيه

انشغلت بأمر الحذاء الاخر الكبير ، فاستدرت أفحصه لأرى إن كان يصلح لى بعد عام أو عامين ، لكن أمى انتزعته منى فى رفق وتعنيف معا فيما تصيح وقد تذكرت : « لا دا بتاع أخوك وجاى على إسمه ما تبقاش طماع » ، فسلمت بذلك على الفور وداخلنى شعور بالسعادة . ثم إننى خرجت إلى المندرة تسبقنى موسيقى الحذاء الذى كنت أقشعر كلما تذكرت خطر الأرض الناتئة عليه وعلى كعبه فترتبك خطوتى وتتعثر . جلست إلى جوار جدتى على الكنبة مدلدلا قدمى والحذاء ساطع فيها يكاد يكون أقيم شيء فى ، وأكثر لفتا للأنظار ، والجميع ينظرون لى بإعجاب باسم ، ومبروكة الشيالة تمصمص بصوت مرح يعكس شعورا بالحسد : « إبسط ياعم .. مبروك ع الأرض » ، وإذا بأمى تخرج بعد برهة تحتضن كومة اللفائف المتعرية تسندها بذقنها والفرح يكاد يوقعها ، حتى إذا ما وصلت إلى كنبة مبروكه الشيالة وضعت كومة الأحذية ورفعت أول ما رفعت المركوب الأسود المستطيل ذى البوز الرفيع ، وأقبلت به نحو مبروكه الشيالة : « دا عشانك ياأمه » ، ثم وضعته فى حجرها . انهدت أسوار الكبرياء على وجه مبروكة الشيالة دفعة واحدة فساحت مشاعر الطفولة على مشاعر الحيزبون وصارت وهى الشمطاء العملاقة مثل عابر سبيل تلقى هبة من يد محسن كريم ، تناولت المركوب مرددة من فم أهتم تعود على خشونة الألفاظ واللعن بأقذع السباب : « ده عشانى أنا ؟ ياالختى إنشا الله ما أشتهيكى .. طب وتاعبه نفسك كده ليه ياحبة عين أمك ياالختى ؟ والنبى طول عمرك حنينه وكريمه » ، وجدتى نفيسة تهز رأسها الرقيق فى خجل بعد أن صارت تتلقى سيل الشكر من كل ناحية ..

سافرت جدتى نفيسه بعد أيام قضتها فى دارها الخاصة الكائنة خلف دارنا حيث أبيت معها ، واستمعت وأنا ملق برأسى فوق صدرها إلى حديثها عن الحياة فى المدينة وسهولتها وحلاوتها ونظافتها حتى قر فى صدرى أن أذهب إلى هذه المدينة لابد . وكنا فى الأجازة الصيفية

فصرت أستعجل قدوم العام الدراسى وأتوق شوقا للبس الحذاء . وكان الشوق يستبد بى فأرتديه وأخطر به فى شوارع البلدة فلا أرى مجلسا إلا جلست فيه واضعا ساقا على ساق فى عياقة ورجولة مبكرة . وما جلست مرة إلا وسألنى ألف سائل فى دهشة شديدة عن الحذاء .. ومبروك ع الأرض .. ياسلام على حلاوته .. ومنين .. وبكام . ومفيش منه .. و .. و .. حتى أعود إلى دارنا أكاد أحمله فوق رأسى من فرط التبجيل والفرح . وكنت أتعمد إبرازه للأسطى خليل فيشمأنط ، ولعم محمود عيد فيملس عليه قائلا فى إعجاب : « مفيش أحلى من كده » . وقد لف صيته البلدة كلها فصار الزملاء أبناء الأعيان يزورونني فى الدار ويطلبون الفرجة على حذائى ذى الرقبة والأستك ، فألمعه بكمى قبل أن أعرضه عليهم ليتناقلوه واحدا وراء الأخر مقلبا فيه ظهرا لبطن فى إعجاب . لقد كان حذاء تاريخيا فى حياتى ، إذ بفضله صرت رجلا فى مشيتى وتلميذا أنيقا يحسب له ألف حساب ، بفضله صرت فى زمرة أبناء الأعيان لسنوات ضمنت خلالها ألا يشتمنى أحدهم قائلا : « ياحافى » . غير أن حلم السفر إلى المدينة حيث تسكن جدتى نفيسه كان قد بدا يستحوذ على ويضع فرحة الحذاء فى المرتبة الثانية .

أيّام الحزنة

كل ما أذكره من طفولتى مشهد النوم ، حيث كنا – أبى وأمى وأختى بدرية وأخى بدر ، وأختى حسنية وأخى حسن ، وأختى فله وأخى فل ، وأخى جعفر وأنا – ننام فى الخزنة . وهى حجرة أشبه بالقبو أو الزنزانة ، قابعة فى ركن قصى من أعماق دارنا الواسعة بشكل يوحى بالهبل أكثر مما يوحى بالرحابة . كانت فى الأصل مخزنا ملحقا بدكان بقالة ، قيل أن جدى – الذى كان ملحقا بوظيفة كبيرة مجهولة لنا فى السراى الخديوى – كان يمونه بالبضائع وبراميل الزيت ، وكان أبى يقف فيه ليديره بعد أن أحيل إلى المعاش من وظيفته الحكومية التى كان يفخر دائما بأنها حكومية . ولكن الدكان راح يهزل ويهزل ، وشهدت رفوفه وهى تفرغ من كافة البضائع وتمتلىء بصناديق فارغه ملونة تستر عرى الرفوف فحسب ، ثم ما لبث الدكان أن تحول إلى مندرة يستقبل أبى صحابه فيها ليشربوا الشاى ويتحدثوا بمراره عن اسلام الحاج محمد هتلر الذى اختفى من الوجود فجأة وتركهم جميعا غارقين فى الوحل ..

الخزنة كانت هى المكان الوحيد فى دارنا الذى يصلح لإيوائنا فى مواسم الصقيع القارص ، أما الصيف فحصيرته واسعة يمكن افتراشها على السطح ولهذا فإننى لا أتذكر سوى الأعماق فى الخزنة وكل

ما عداها تبدد فى الهواء الطلق . طولها متران وعرضها متر ونصف ، مبنية بالطوب النيء ، مليسة بالطين المخلوط بالتبن ، جدرانها سوداء بفعل الهباب والأنفاس والليل الدائم ، لها باب طويل أسود من الخشب الأصيل المشغول ، بدرفتين ، يفتح على المندره ، وفى الحائط المجاور له باب آخر صغير جدا ، بدرفة واحدة ، يفتح على السلم مباشرة ، خمنت أن يكون غرضه إدخال البضائع إلى الخزنة من باب الدار الخلفى تفاديا لمدخل الدكان النظيف وكنت دائما أقشعر من هذا الباب المغلق ربما من قبل مولدى ، ليس لأن الظلام يتربع كالوحش على عارضته السفلية ليل نهار وإنما لأنى صحوت ذات ليلة على هياج فظيع وصريخ مسرسع ملتاع يقشعر منه البدن ، فلما فتحت عينى رأيت جمعا هائلا تبينت فيهم بعض أصدقاء أبى وجيراننا وبعض إخوتى وأمى وأبى يتصايحون فى عنف وعصبية ، ويدلقون الماء فى خصاص الباب ، وثمة من يضرب فى خصاص الباب بقضيب من حديد ، صرت أصرخ فى رعب ، لولا أن أختى بدرية أخذتنى فى حضنها وأفهمتنى أنهم كانوا يطاردون العرسة حتى تمكنوا من زنقها هكذا بين فكى الباب .. فظللت مدى الحياة أقشعر من هذا الباب .

ثمة رف خشبى صغير محندق ينبت على حائط الباب الصغير ، تتسلطن عليه لمبة الغاز نمره خمسة ، تبعث ضوءاً عليلا يصنع الأشباح التى باتت تؤنسنا وتعاشرنا خلف المصباح يمتد شريط طويل كثيف من الهباب القاتم السواد . فى الحائط المواجه لهذا الحائط دولاب غائص فى الحائط ، له باب خشبى بحاشية لابد أنها كانت جميلة ذات يوم بعيد جدا .. كانت أمنيتى أن تطوله قامتى لأعبث بمحتوياته التى لاينى أبى يضعها فيه : كتب صفراء وروايات وسيرة أبى زيد وعنتره وألف ليله وكتاب شمس المعارف الكبرى الذى كان يحلو لأبى أن يجرب ما فيه من مسائل السحر والأعمال السحرية ، وعقود ومواثيق وقسائم وأوراق غامضة ، حتى محفظة نقوده الخاوية وساعته العتيقة يخلعهما من

الصديرى قبل النوم ويضعهما فى الرف العلوى .. فلما طالت قامتى فتحة الدولاب صرت أقشعر من جوفه الذى يفح ظلاما ورائحة عفونة ورطوبة تختلط برائحة الورق ورائحة العثة ، وكنت ما أن أفتح درفته التى تزيق وتتلكأ حتى أسمع صوت مباراة فى الجرى والتقافز صادرة عن جوف الدولاب أعرف أنها لفرق من الفئران تسكن فى جوف الحائط حيث يوجد سرداب سحرى طويل ممتد فى الحائط قيل أن جدى أعده لتخزين البندقية غير المرخصة .

تحت الدولاب مصطبة رفيعة جدا بعرض الجدار ، عرضها لا يزيد عن نصف متر ، أعدت فى الأصل لتوضع فوقها براميل الزيت ذات الصنابير لكى يتسنى للمرء أن يتقرفص بالإناء ويفتح الصنبور على راحته . لكن حينما جف الزيت تماما بيعت البراميل كما بيعت الرفوف والبنوك والصنج والموازين ، اشتراها بائع سريح كان يسهر مع أبى كل ليلة يبْحثان فى الكتب الصفراء عن حجر الفلاسفة الذى يقال أنه يحول المعادن الرخيصة كلها إلى ذهب ، إلى معدن ثمين . لا أذكر متى تم هذا ، كذلك لا أذكر متى بدأنا نبيت فى هذه الخزنة ، لكننى أذكر أن أبى كان ينام فوق هذه المصطبة . وكانت لدينا سجادة قديمة جدا هى كل ما تبقى من آثار العز الغابر ، متآكله الأطراف مليئة بالخروق ، تقيحت ألوانها ، مع ذلك ظلت تحتفظ باحترام نسبها إلى السراى الخديوى ، وإن بدت لكل من زارنا ورآها ، مثلنا عزيز قوم ذل . يطويها أبى بالطول أربع طيات ثم يمددها فوق المصطبة ، فوقها وسادة حائلة اللون غارقة فى الزيت والعرق صلبة كأنها محشوة بالحجر ، يضع فوقها منديلا محلاويا ينافسها فى الهوان والقدم ، ينقل المصباح من رفه إلى مسمار دق أسفل الدولاب الحائطى ، يظل يقرأ لاصقا عينيه بالصفحات لساعات طويله ، ثم ينقل المصباح إلى رفه ، ونشعر بمروره ونحن نيام على الأرض أمام المصطبة متراصين فتقشعر أبداننا الغائبة عن

الوعى خوفا من أن يتعثر فى جثثنا فيقع بالمصباح فوقنا فتكون الكارثة ، لكنه فى العادة لا يتعثر إلا وهو عائد بعد أن يبرم ترس الشريط فيغلق الضوء العليل أجفانه . تحت الرف مباشرة على الأرض طاجن فخارى كبير تتصاعد منه رائحة الصنان الحادة ، حيث كان معدا لبولنا ، وكنا نحفظ مكانه جيدا ، ويقوم الواحد منا من النوم مغلق الجفنين ، فيخطو خطوتين اثنتين ، ثم يطلق العنان لبولته التى تخر وتبقلل بصوت عال ، فى الصباح تقوم أختى بدرية برفع هذا الطاجن ودلقه فى الشارع ، لتكون أمى قد نصبت مكانه الكانون ، الذى هو عبارة عن بضع قوالب من الطوب الأحمر ترصهما فى صفين متقابلين تسند الحلة فوقهما وتدس حطب النار بينهما لتسخن المياه لكى يستحم أبى ، حيث نكون قد هاجرنا من الخزنة إلى المندرة ليتمكن أبى من وضع الطشت إذ يقف وسطه ويرش جسده بالماء ثم تقوم أمى بدلق الماء المتخلف من حمومه فى حلة كبيرة وتدلقها فى الشارع . غير أن أبى بات متنازلا عن هذا الحق ضمن الحقوق الكثيرة جدا التى كان يضطر إلى التنازل عنها يوما بعد يوم ، فأصبح يرتدى الجلباب على اللحم ويطرقع بقبقابه حتى الجامع المتاخم لحارتنا حيث يستحم فى ميضأته ، وهو مشهد مألوف جدا فى كل مساجد قريتنا . حين يعود من المسجد يكون كل إخوتى فيما عداى أنا وجعفر قد لحقوا بملم الأنفار حيث يشتغلون أنفارا موسميين فى شغل الوسية التى قيل إنها كانت ذات يوم من بين المهام التى يشرف عليها جدى .. وتكون أمى قد جهزت له الفطور ، الذى يتكون عادة من رغيف من دقيق الذرة المخلوط بالسن ، وقطعة جبن قريش ، وطبقا من اللفت ، يأكلها أبى فى شهية هتماء تستغرق وقتا طويلا ، والوابور المشتعل بجواره يئن أنينا عذبا ، يمتزج برائحة الشاى النفاذة وهو يغلى فى البكرج ذى اليد السلكية . تنتهز أمى لحظة إزاحته الطبق من أمامه لتصب الشاى فى كوب من الزنك صغير ، تتصاعد من رغوته فقاقيع نرى فيها خيال الشمس المتسربة من بين حديد الشباك وخيال الصور

الملونة المعلقة على حوائط المندره ، بلذة فائقة يشفط أبى كل هذا فى شفطتين ليفرغ إلى الجوزه يشرب كرسى الدخان المعسل ريثما تنتهى أمى من تجهيز شاى الدور الثانى ، حيث يغلى نفس التفل مرة أخرى ويحلى بقدر أكبر من السكر .

أتأمل أمى وهى تتنهد إلى الداخل كاتمة فى صدرها شيئا تود لو تجيء الفرصة المناسبة لتبوح به . أعرف هذا الشيء الذى تود قوله ، إنها تتحين انفراجة الأسارير على وجه أبى لكى تبلغه أن موعد الطحين قد حان ، وأن الرغيف الذى أكله اليوم فى فطوره انتزع من كومة لقيمات جافة فى قلب « الصحارة » هى كل ما تبقى من الطحين السابق . أبى هو الاخر يعرف أنها تريد أن تبلغه هذا ، لكنه يتجاهل ، وكلما خيل إليه أن أساريره انفرجت قليلا عاد فكشرها وعقد على صفحة وجهة عشرات العقد والكلاكيع كأنه يقيم سدودا يمنعها بها من فتح هذا الموضوع أو أى مواضيع أخرى . مسكينة هى ، ماذا ستفعل حين أصرخ فيها بعد ساعات طالبا الغذاء وهى تسوف وتماطل ، إن الدقيق مطلوب الان وفورا ، ولحظة التأجيل تمتد عادة إلى مثل هذا الحد ، فإلى أن نشترى كيلة الذرة وكيلة الشعير ونطحنهما فى الماكينة نقضى بضعة أيام نأكل خلالها الأرز الذى تشتريه أمى كوبة وراء أخرى كل يوم ، ملء كوب الماء أرزا بقرش وثلاث بيضات تحوشها أمى من الدجاج الذى تربيه وتسكنه معنا فى الخزنة فى قفص تغطيه بثوب وتضعه على عارضة باب الخزنة الصغير المطل على السلم . ومسكين هو ، ماذا سيفعل وكيلة الذرة بثلاثين قرشاً وكيلة الشعير بعشرين ، ونحتاج لأربع من الذرة وثلاث من الشعير ، أى ما يقرب من جنيهين فى حين أن أجرة إخوتى فى الوسية جميعهم ثلاثين قرشا فى اليوم ، وقد قبضنا أجرتهم عن أيام طويلة قادمة منذ أيام طويلة ماضية ، ولايزال أمامنا خمسة عشر يوما حتى يصير من حقنا طلب مقدم آخر من المقاول على منصور الذى يورد الأنفار للوسية ، ولو لم يكن يقيم احتراما لجدنا الذى كان صديقه

لما أعطانا مقدما من الأساس . تظل المحاورة الصامته تحتدم تحت الجلد بين وجهى أمى وأبى لبضعة أيام ، وإخوتى يسرحون إلى حقول الوسية ببقايا أرغفة مكسرة يصرونها فى المنديل المحلاوى ليفرشوها عند الغذاء مع خيارة محدقة ، ولا أحد منهم ينبس بحرف لوقوفه على جلية الخبر ..

لست أذكر متى بدأت أيام الضنك ولكننى أذكر أنها لاتزال قائمة ولاأزال أنام فى الخزنة محشورة جثتى بين جثث إخوتى . أتقلب على الأرض الصلبة بصعوبة ، لأجد أن الحصيرة قد انطبعت خطوطها الغائرة على ضلوعى ، لتضربنى أختى حسنية فى فكى صائحة أننى كتمت نفسها ، وأجدنى أرتعد من البرد رغم كثافة الأنفاس ، أبحث عن البطانية المرقعة المزودة بملاحق من الخيش ، أجدها شبحا متموجا بين الأقدام كبركة من القطران ، لكى أستعيدها على أن أشدها من بين الأجساد الثقيلة ، ولابد أن يصحوا الجميع ، وهى لحظة أخشاها ويرتعد قلبى كلما تخيلت مجرد حدوثها مرة أخرى .. إذ حدث أن أخذتَ أسحب البطانية المزعومة وأشدها من أطرافها بكل قوتى حتى تقلب الجميع وتصايحوا فى الظلام وبرطموا وظلت ضوضاؤهم تنق لفترة طويلة وأنا أحاول شرح موقفى بلجاجة ، فما أدرى إلا وكف الشيطان تهبط على وجهى كسقف الحجرة كالقدر ، فأنتفض صارخا من قلب يتمزقه الفزع ، والكف الشيطانية الخشنة بأصابع من لهب تقبض على كتفى بعنف تلصقنى فأصطك بدماغ أختى حسنيه فتندفع هى الأخرى صارخة جاعرة ، والكف تنهال على صدغى ورأسى والظلام مطبق ، وصوت خيل إلى أنه صوت أبى يزأر فى بحقد دفين مجنون هادرا بألفاظ يخيل الى أنها : نام بقى نامت عليك حيطه ، وأنا أحاول كتمان أنفاسى ولكنها تتجمع لتندلق مرة واحدة من حين إلى حين كصيحات محبوسة كصوت ريح قوية تعوى ألما وهى تدخل من خصاص الباب ، أختى بدرية تزحف عبر الأجساد من أخر الخزنة

لتلحق بى ، تزيح جسد أختى فله ، فتحدث حركة تزحزح تشمل الصف كله ، لتستقر هى إلى جوارى آخذة رأسى فى حضنها وتربت على ظهرى وأنا أنتفض ، وحركة انسلات من فوق المصطبة تحدث ، وقدم تتعثر فينا ، نعرف من لمسها أنها قدم أمى ، حيث تصل إلى الرف وتشعل المصباح ، فنزيح الغطاء عن عيوننا خلسة ، كلنا دفعة واحدة ، لنتمعن فى شكلها تحت الضوء ، فنراها منفوشة غير محكمة كأنها لمت جسدها على عجل وتركت بعض أجزائه حيث كانت تنام – وياللعجب – بجوار أبى على المصطبة التى لا تكاد تتسع لجسد واحد ..

بعد برهة يخبو الضوء من جديد وتختنق الأشباح على الحائط المواجه لعينى وقد جفت فوقهما الدموع وكونت طبقة صلبة . أنظر فى المصباح فأرى شريطه جمرة حمراء وسط زبالة شاحبة كالمصاب برمد صديدى ، فأعرف أن زيت المصباح قد نفد من الأمس وأن كلاهما – أبى وأمى – قد رحب بتركه دون زيت وتجاهل الأمر فى مثل هذه الليلة بالذات ضمانا لان لا يقوم أحدنا فى الليل ويجده مطفأ فيشعله ، وكنت أعرف أن ثمة ليالى يستحب فيها الظلام ولكنها مثل كل الظواهر والبواطن غامضة ، ثم إننى لم أكن قد تعلمت كلمة لماذا وقد بات من الواضح أننى وكل أخوتى وأبناء جلدتى لم نتعلمها بعد ..

تلفظ الذباله آخر أنفاسها وأمى متربعة عند قدم أحد إخوتى من أول الصف ، يداها ممسكة بذيل ثوبه ، يمناها تسرح بين ضلوعه وفى ثنيات ثيابه الداخلية ، خارجة بالقمل من جسده ، لتضع القملة فى فمها وتضغط عليها بأسنانها فتطرقع . وكنا نعجب كيف أن الواحد منا حين يتوجع من قرص القمل والبراغيث فيصحو ليهرش فى كل جسده ويحاول اصطياد قملة أو برغوث فلا يفلح ، فى حين أن أمى تمد يدها فقط تحت الثوب لتعود فى الحال بقملة أو برغوث وكنا نعجب أكثر من قدرتها

على طحن الحشرة تحت سنها ونفخ بقاياها ، وكنا نسألها كيف تفعل ذلك ؟ فترد فى بساطة : إنها دماؤكم التى نشقى فى تكوينها داخل عروقكم فهل أتركها لهذه الحشرة تنعم بها ؟ وما دمت لم أفلح فى مقاومة هذه الحشرة فلن أتركها تمص دم أولادى وسوف أنتزعه منها حشرة حشرة . وكان ذلك يزعجنى فى أول الأمر ولكننى مع ذلك كنت كلما صحوت وسمعت طقطقة الحشرات تحت سنتها تسرى أسراب النمل داخل عروقى وأظل أستشعر الدفء والراحة فى انتظار وصولها إلى عبر الأجساد ، حيث أستكين لكفها وهى تسرح بين ضلوعى تخلصها من فرق القمل والبراغيث التى ترتع جيوشها فى ضلوعى .

فى تلك الليلة الليلاء ، وعلى ضوء تلك الذبالة المرمدة سقطت عينى على الحائط فوجدت بين الأشباح الشاحبة الساجية أول تغير انتبهت إليه فى حياتى وبدأت ألاحظه بشغل كبير ، ذلك أننى قبل هذه اللحظة كانت عينى بعد أن تستعرض الأشباح وتتيقن أن صوت الهدير والرعد والأنين المتماوج فى أنحاء الخزنة قادم فى الأصل من ركن على المصطبة لا من هذه الأشباح ، تستقر عينى على صورة منزوعة من مجلة وملصقة على الحائط منقسمة إلى بروازين كبيرين فى كل منهما صورة لرجل ظيب الوجه ذى شارب يرتدى البذلة والطربوش ووشاحا عليه بعض النجوم والدبابير الذهبية ، وكنت قد علمت قبلا أن هذه التى على اليمين هى لرجل يدعى سعد باشا زغلول الذى قال : مفيش فايده ، والأخرى لرجل يدعى النحاس باشا الذى ألغى المعاهدة ، وكنت أعرف أن أبى يضعهما هكذا فى مواجهته لتقع عينه عليهما وهو يضطجع على الوسادة الجافة قبل أن يغلق جفنيه على النوم ، أما التغيير الذى حدث فهو وجود صورة ثالثة لرجل يقف رافع الرأس والصدر فى شموخ ، يمسك بيده الكاب العسكرى ، وفى شاربه وملامح وجهه قوة وتصميم وعناد ونبل ورهبة ، وبسمة حنون إن بددت رهبته لا تقوى على خدش مهابته .

ظللت أتأمله طويلا فبدا لجدة الورقة بالقياس إلى الصورة المجاورة القديمة الحائلة كأنه مربع انفتح فى الحائط وسمح بتسريب ضوء تمثل فى هذه الصورة لحظتها رفعت حاجبى ، وخرج صوتى من قرار مكين مرتعش الأوصال : « أمه .. أمه .. هو مين اللى متعلق على الحيطه » ، يبدو أن صوتى كان محملا بالرهبة حتى أن أمى التى كانت منهمكة فى سحق الحشرات واستعادة دماء أبنائها منها استدارت خلفها مذعورة وهى تقول بخوف : « مين ياوله ؟ » ، فرفعت أصبعى الصغير نحو الصورة ، فشوحت ثم لكزتنى فى جنبى قائلة : « أنا عارفه ؟ » . فانكسر جفنى فوق ذبالة الضوء المرمد ، وشردت فى بحر الظلام منتظرا يدها التى حتما سأحس بها سارحة بين ضلوعى .

عرفت فيما بعد أن هذه الصورة الجديدة هى لرجل يدعى جمال عبد الناصر الذى طرد الملك والإنجليز وأمم القنال وقال أنا المصرى العربى المحمدى ويلكم يا أعداء العرب . وكنت أعجب لماذا يعلقه أبى على جدار الخزنة بالذات رغم اتساع جدران المندره ، لكننى سمعته مرة يقول فى جمع من صحابه شاربى الشاى الأسود أنه واثق من أن عبد الناصر سوف يرى هذه الخزنة ويفهم كنه ما يدور فيها من حياة ، فيقول أصحابه ضاحكين : « حتى ولو كان مجرد صوره ياقاسم أفندى ؟ » فيشفط الشاى صائحا : « حتى ولو كان صوره فى مجلة » ، فيقول أحدهم متوغوشا : « إزاى ياأخى » فيقول أبى فى ثقة عجيبه : « أنا عارف .. عينه فى الصوره بتقول كده .. بتقول انه ممكن يشوف الخزنة » . لست موقنا مما إذا كان عبد الناصر قد رأى الخزنة أم شغلته أحداث الحياة عنها ، ولكن أبى ظل سنوات طويلة يؤكد أنه يراها ولكن المشوار بينه وبينها طويل وشاق فمعذرة إن كان قد تأخر فى الطريق لسبب من الأسباب . وقد مات عبد الناصر قبل أن يشرفنا بالحضور لرؤية الخزنة ، وعلقت بجوار صورته صورة لرجل يدعى أنور السادات

بدا لنا أنه جزء لا يتجزأ من محتويات الخزنة ، ولكن حينما سمعناه يشتمنا ويتوعدنا ويزأر فينا ويحرض علينا الباعة وأصحاب المال انكسر خاطر أبى وكف عن النظر إلى حائط الصور بقية عمره ، على أنه ظل موقنا أن عبد الناصر سوف يحضر إلى الخزنة ذات يوم ولكن بجلباب وطاقية مثلنا .. .

لم أعد متأكدا مما إذا كنت لم أبرح الخزنة من يوم ولدت حتى اليوم أم أنها هى التى لم ولن تبرحنى وتظل تتنقل معى فى كل مكان وزمان . إنما الذى أتأكد منه حقا هو أننى لازلت فيها وأن الزمن لايزال هو الزمن وأن ذبالة الضوء العليل المرمد لاتزال تخبو كلما خلدنا إلى النعاس . كل ما مررت به فى حياتى . إن كنت قد مررت حقا بشىء – يقبع فى هذه الخزنة . أتذكر أننى كنت أخرج إلى المندرة فأصطدم بظلام مماثل يمتد هذه المرة من الشارع ، حيث يجثم السحاب الكثيف على السماء ، وأرى المطر يرخ بشدة والسماء ترعد بعنف فأدرك ألا سبيل لرؤية الخلاء ، ذلك أن الشارع بحر من الطين السائل يرتفع إلى ما فوق العتبات ويدخل علينا المندرة فنمنعه بالأوانى والألواح الخشبية ، ويتعطل أبى عن السعى فى أبواب الله التى هى بلا نهاية . أمى رغم كل شىء تحب أبى ، فى غيبته تظل نهارها قلقة عليه ، آه لو أمطرت السماء قبل أن يعود إلى الدار ، تظل تضرب صدرها فى ولولة ، تذهب إلى أقاربنا المجاورين تدعو لهم بالستر والصحة أن يلحقوا بالرجل قبل أن يغرقه المطر ، يتحجج أقاربنا بأن الحمارة فى الحقل من صبيحة ربنا ، تظل هى واقفة فى الخلاء مغروزة فى الطين تولول فى هلع وقلة حيله ، نتبعها أنا وأخى جعفر فى الولولة ونندمج فى البكاء بحرقة نضحك لها فيما بعد ونتندر ، وأمى ذاهلة عنا تذهب إلى آخر الحارة وتتزحلق وتتساند على الحيطان . فى العادة نراه فى النهاية مقبلا كشبح هائل الحجم محنى القامة يحبو على ثلاث ، تمتد عصاه العوجاية لتستقر فى البقعة الصلبة ليخطو إليها ، يبدو وسط سيل المطر المنهمر وفى قلب الطين المتراكم كأنه كتلة

من السحاب أسقطها الرعد فى المطر . تسرع أمى إليه وتهم بتطويقه وحمله على صدرها ، لكنه يعاجلها برفع العصا فى وجهها منذرا إياها بألا تفعل ، فترتد عنه لأن عادتها الصدع حين يأمر حتى ولو تدحدرت به الحال . تحضر له الطشت والإبريق فيغتسل ، ثم يقفل راجعا إلى الخزنة حيث نتواتر فى أثره داخلين . تحتفل أمى بعودته سالما فتكشف عن مفاجأة تدخرها ، إذ تبدأ بإشعال الكانون فجأة ، فتشرئب الفرحة بأعماقنا ويشملنا فرح بهيج يتوتر خوفا من أن يتمخض الأمر عن تسخين مياه لقدمى أبى ، هى تعرف أننا نتوجس من هذا ، فتضللنا ، وتجىء بالحلة الكبيرة بقدر من الماء وتضعها على الكانون لوقت طويل ، حينئذ لا يجرؤ واحد منا حتى أبى على سؤالها ماذا ستفعل ، ليس خوفا منها بل خوفا من الصدمة حين تبدد الأمل بقولها : « حاسخن مياه » . نخدع أنفسنا طويلا بمحاولة نسيان الأمر من أساسه ، فى نوم أو لعب ، لنفاجأ بالطبلية وقد نصبت ، وسبت العيش وقد استقر جوارها ، وجو الخزنة يعبق برائحة العدس العظيم كل العظمة ، والأطباق تتوالى ، وأمى بجوار الكانون تراقبنا وتنظر فى قعر الحلة بتوجس مرتهبة ، فإن رأتنا لانزال ننتظر امتلاء الطبق كشرت وزأرت ورمتنا بنظرة تأنيب قاسية منذرة إيانا بحق الغائبين الشقيانين فى الحقل فى بحر المطر فحينئذ يكتسى وجه أبى ببسمة تسليم ويبتعد عن الطبلية زاعما اننا قد حشرناها – يقصد بطوننا – حتى لتوشك على الانفجار ! يكذب أخى جعفر بشكل يغيظنى حين يضرب بطنه بكفه صائحا : « وأنا حشرتها » وأنا أعرف أنه يكذب ، فأزغده قائلا : « يافشار ياميًاس » .. فيرفصنى فى جنبى قائلا : « يامفجوع » فأزغده فى صدره قائلا : « ياكذاب » ، تضربنى أمى فوق رأسى بالمغرفة ، فأصرخ فى عنف وأفش غلى فى البكاء ، فتعاجل أخى جعفر بضربة مثلها ، فأكف عن الصراخ ، ويشرع هو ، وتقول أمى مبررة فعلتها : « مولودين فوق روس بعض عشان كده نقرهم من نقر بعض » ، وتعلوا الضوضاء فينتفض أبى

صائحا من غيظ ومن كمد : « إلاهى ربنا ياخدكم كلكم ، أنا عارف هو بلاني بيكم ليه ؟ أنا كنت عملت فى دنيتى إيه بس ، ده كفر والله يامسلمين » ثم ينهض موسعا المصطبة من أمامه ضاربا الهواء بقدمه .. ويقيم الصلاة .

إذا أقام أبى الصلاة فعلى كل شىء فى الكون أن يكف عن التنفس وإلا لخبط أبى فى قراءة القرآن ، هو الذى يعيد غسل اليد والقدم عشرات المرات لمجرد الوسوسه ، ويعيد التعوذ مثنى وثلاث ورباع ليتأكد أنه قد تعوذ عن نية خالصة . نظل أنا وأخى جعفر نكتم بكاءنا ، تتحول الدموع إلى برابير تنثال من أنفينا ، نتبارى فى الشن بصوت عال محاولين استرجاع الدموع المنسربة من خلال الأنف تشمل الخزنة رهبة يقشعر منها البدن ، يرتفع صوت أبى بترتيل القرآن منغماً مجودا ، نروح نرقب أبى غير مصدقين أنه هو الذى يصدر هذه الأنغام الشديدة العذوبة ، التى يقف لها شعر الرأس ، وينعتق الخيال من أسر الخزنة إلى صور جميلة ، فلو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى .. الله أكبر .. سمع الله لمن حمده .. ربنا ولك الحمد .. فتردد الخزنة اصداء التكبير والحمد ككورس يهزنا ويزلزلنا ، نشرع فى نسيان آلام ضربة المغرفة ، نتذكر أننا كان يجب أن نكون سعداء الليلة فقد تعشينا عدسا نحاول تذكر طعمه ولما يمض على مضغه دقائق ، نتشكك فى أننا بالفعل قد أكلنا حساء العدس أو قد أكلنا من الأساس ..

لحظئتذ ننتبه الى أمنا ، لنجدها قد تكورت جوار الكانون معطية وجهها للحائط مسندة مرفقها على ركبتها ، وخدها مستقر على كفها ، وبيدها تمسك عودا صغيرا من القش تنكش به الأرض كأنها تستطلع الغيب الصلد ، لكننا نحس أن ظهرها يرتعش فى الشحوب ، فنميل لرؤية وجهها ، فيخيل إلينا أن دماغها يتصاعد ليخترق سقف الخزنة

ويتصل بالسماء المرعدة الممطرة فى الخارج ، ومطر الدمع المتساقط على خديها وفود اتصالها بالسماء ، تنفضها العبرات المكتومة فيهتز عقد الفل المشغول بالترتر فى تربيعة رأسها ، نشعر بخوف غامض رهيب ، نستعد لاستئناف البكاء من جديد ، غير أننا نتمهل قليلا ربما أعفانا الله منه بمعجزة ، تتحول عبرات أمى إلى أهأهات متقطعة حادة نائحة مرعدة ، تختلط بصوت أبى يقرأ التحيات ، يستبد بنا الرعب ، يحلو لأخى جعفر أن يبادر بإعلان مشاركته لأمه فى البكاء والمؤازرة الباكية طمعا فى شيء تعطيه له خلسه ، خشيت أن يسبقنى بالحَظوة لدى أمى فابتدرته بالبكاء ، وكان هو حريفا فى البكاء ، لأنه كان أكثرنا جميعا تعرضا له ، اذ هو قد ولد فى عز انشغال أمى حتى عن نفسها ، حيث لا يوجد من يستقبله بأدنى قدر من الاهتمام ، فكان يترك فى العراء أو حتى فى جهنم حتى ينفلق من البكاء فينهد نائما ويحسن صنعا لو أنه لا يصحو ثانية على الاطلاق ، هو صاحب تجربة يعتد بها فى البكاء ، يستطيع رفع صوته بالبكاء دفعة واحدة فيبدو كأنه فى ذروة بدأت منذ وقت طويل ، لو أنه نجح فى حياته بالامساك بلحظة الذروة وحدها بكل هذه الدربة فى مسائل الحياة لأصبح رهيبا ، لعين هو نعم لكنه مسكين فهو لم يكن فى يوم من الأيام الا باكيا . وهكذا انفجر نائحا بصوت يثير الشؤم .. ربنا أتنا فى الدنيا حسنة وفى الاخرة حسنة وقنا عذاب النار .. السلام عليكم ورحمة الله .. السلام عليكم ورحمة الله .. ما تبطلى المناحه دى يامره يحرق .. ويقولها ، ولا ندرى كيف لفظها وهو الذى يرفع عصاه العوجاية ضاربا بها مؤخرة كل من يلفظها أمامه . ثم أننا ننغلق تماما لبرهة فيشرع هو فى ختام الصلاة . تنتفض أمى فجأة ثم تندفع خارجة ، نرتعب ، نضرب فى أثرها ، يكون من الواضح أنها ستفعلها مثلما فعلتها ذات ليلة كهذه ، اذ خرجت الى الخلاء ضائقة هالعة وما لبثت أن اختفت فى جوف الظلام ، لتعود بعدها بيومين وصحبتها رجل من أبناء عمها من عزبة الطوال ، دخل وأنب أبى تأنيبا شديدا ، واستمع إليه أبى

فى صبر وهدوء خرافيين ، ثم لعن له آباءه وآباء الذين خلفوه ، لكن الرجل فى النهاية ترك أمى مرهوبة الجانب لبضع سنوات ..

لكن أمى حين لحقنا بها توقفت عند باب الشارع نائحة : « رايحين ورايا فين ؟ عايزين منى إيه ؟ » ثم يغلبها اليأس فترتد فى فراغ المندرة حائرة تضرب فى الظلام ، تظل واقفه لبرهة ثم تفترش الأرض جالسة ، فنفعل مثلها . لكى يميتها أبى من الكيد قام فى بساطة وأغلق باب الخزنة ، فاختفى مستطيل الضوء الشاحب الذى كان منطرحا من فتحة الباب ، فغرقنا فى الظلام والغموض والحيرة واذا بأمى تصيح فينا وهى تقرصنا بقسوة فى خدودنا وجنوبنا ، وتضربنا بعنف مرددة : « لو كنت أعدمكم ، لو كنت أصبح ما الاقيش حد منكم على وش الدنيا » ثم ترتد إلى نفسها فتروح تلطم خديها وتمزق فى وجهها ، وجعفر يصاحبها بالعواء المكتوم الملتاع المشئوم ، وأنا أروح وأجىء حائرا أبكى بعمق . ينقذنا الله بطرق على الباب ، نعرف فيه نفحة أخوتى عائدين فى اللهب البارد بعد أن أهلكتهم حقول الوسية . أجرى فأفتح لهم ، يتعالى صوت جعفر بالعواء فى استقبال الوافدين . يدخل المناكيد كتلا من الطين لا يفلح النهر نفسة فى تخليص الآدميين منها . وفى الحال انتفضت أمى مندفعة نحوهم يرسل صوتها موجا من الحنان الدافق : « قلب أمكم .. اقلعوا اقلعوا » . ينسون شقاءهم ، تقول أختى بدرية فى صوت تلمع على أوتاره قطرات المطر : « مالك يامه .. كنتى بتعيطى ليه ؟ عامله فى نفسك كده ليه ؟ » . تقول أمى : « قلبى واكلنى عليكم من الصبح هو اللى أنا فيه ده شويه يابدرية ؟ » . تخف بدرية فتخلع عن نفسها شرائح الطين حتى صارت بعد برهة جسدا عاريا بديعا أجمل من الصور الملونة التى تنشرها المجلات لكى نعلقها نحن على حوائطنا . وهكذا فعلت بكل اخوتها ، وانحنت فكومت بجوار الباب كومة هائلة من الطين والوحل المتماسك ، ثم أقبلت أمى من دهاليز الدار حاملة الطشت والابريق قائلة لاختى ان تترك الطين وتغتسل وفى

الصباح تقوم هى بفرز الطين من الثياب على رواقة .

ندخل جميعا الى الخزنة راغمين . تنفتح الصحارة من جانبها الخلفى وتخرج هلاهيل قديمة يرتديها اخوتى . تصر أمى على اشعال الكانون ثانية لتسخين العدس كى يدفىء جوف الولاد ، يبرطم أبى مغمغما فى احتجاج على اثارة الدخنة من جديد ، فلا تعبأ به أمى ، هو أيضا لا يعبأ بما قال ، فينصرف الى ما هو فيه من قراءة فى تفسير الجلالين والبيضاوى اللذين يفخر دائما بأنه ورثهما عن أبيه الورع .

كلنا رغم الصقيع والحضيض والشظف لعب الكتاب برؤسنا وأورثنا رغبة دفينة فى فك طلاسمه ومعرفة أسراره . ذلك أن أبى فى الفترة الاخيرة من حياته كان يتعيش من « فتح الكتاب » ، يجيئه المريض أو المعتل يسأله أن يفتح له الكتاب عله يعرف علته . لو فتح له أبى الكتاب فى المندرة لما صدقه المعتل ، فخير مكان اذن هو الخزنة ، ربما لأنها بدعة غذاها أبى فى بداية الأمر ، أن يصطحب المعتل معه إلى الخزنة ، ويجلسه أمامه على المصطبة ، ويفتح له كتاب شمس المعارف الكبرى أو كتاب ابن سيرين يظل يقرأ فيه برهة طويلة ثم يشرح للمعتل سر علته واضعا له العلاج الذى لا أظن أنه قد عالج أحدا من شيء إن لم يكن قد ضاعف من العلل . لكنا تعلمنا القراءة وذهبنا الى الكتاب فى المواسم التى ينعدم فيها الشغل فى الوسية . لم يكن أحد فى العب كله يتصور فى يوم من الايام أن أربعا من اخوتى هم بدر وحسن وفل وجعفر يأخذون الشهادة الابتدائية من منازلهم بتفوق كبير ، ثم يقررون الاستمرار فى التعليم فاذا بهم يرتحلوا الى المدينة ويشتغلون فيها شتى الاعمال للإنفاق على التعليم ، حتى تخرجوا فى معهد المعلمين والمعهد الفنى .

أنا وحدى الذى لم أفلح فى شغل الحقل ولم أوت صبرا على احتقار المدرسين لى ومن هم على شاكلتى ، وذات يوم ضربنى المدرس

بالشلوت فألقانى خارج الفصل محطما ، فجن جنونى وأهلت عليه طوب الشارع كله حتى دمرت زجاج الفصل كله وأثرت فزعا هائلا لكن مؤخرتى ظلت توجعنى طول العمر خاصة كلما جلست الى كتاب . لم أعد للمدرسة بعدها أبدا ، وصرت أشغل وقتى بمساعدة الناس فى أعمالهم لقاء هبة أو عطية ، وأقرأ لهم الخطابات وأكتبها ، ولما كبرت قليلا كان قد وقر فى ذهنى أننى لابد أن أرث ولع أبى بفتح الكتاب ، وانصرفت الى هذا الأمر معتزما أن أتقنه أكثر من أبى وأجنى من ورائه أرباحا طائلة ، لكننى ما إن شرعت أقرأ حتى تذكرت حلم أبى القديم باكتشاف سر حجر الفلاسفة الذى يستطيع تحويل المعدن الرخيص إلى معدن ثمين .. وهكذا انفتحت على عالم القراءة فلم أعد أعرف لى دخلا من خرج ، وبت كضال فى بحور لا يعرف لها قرارا أو شطآنا . أتكسب بطرق بهلوانية ولو بمساعدة البقال فى جمع حساباته أو فى توزيع التموين .

تزوج البنات واحدة وراء الاخرىٰ فى قرى وعزبٍ مجاورة ..

بقيت وحدى أعول عجوزين متهالكين أقاسى معهما مرارة المرض والفاقة والأشباح فى الخزنة . آه كم شهدت هذه الخزنة من أيام تركت لنفسها أشباحا خاصة مميزة عن بقية الأشباخ . ففى الخزنة تمت خطوبة إخوتى البنات ، وعقد قرانهن ومنها انطلقت الزغاريد رائقة حراقة سعيدة حقا ، وخرجت العروس مجلوة كالقمر ، وفوق هذه المصطبة الرفيعة احتفلنا بخطابات النجاح التى يرسلها إخوتى . وفيها نعم فيها .. تلقينا العزاء فى ثلاث من إخوتى هم بدر وحسن وفل .. وثلاثتهم ماتوا فى حروب متواليه .

اطمأن قلبى حين رأيت أبى يعفو عنهم لحظة الوداع ، وهو الذى كان لا يكف عن لعنهم فى خطابات مطولة بسبب طول ابتعادهم عنا والانفصال تقريبا ، حتى ساعات الاجازة من الجيش كانوا يقضونها فى

المدينة – على حد قوله – يبرطعون ويفنطزون . أما أمى فكانت تعذرهم دائما ، وتقول فى صدق وانفعال أن من يخرج من هذه الخزنة يكون مجنونا لو عاد اليها . الوحيد الذى رطب قلوبنا هو أخى جعفر ، حيث كان لا يغادرنا الا للإتيان بالدروس والعودة للسهر فى الخزنة حتى الصباح يذاكر ويحل المسائل وسط الرطوبة والصنان وعلى ضوء الذبالة المرمدة . أحببناه حبا شديدا لفرط حنوه علينا ، العجيب أن موهبته القديمة فى البكاء انقلبت فى سنوات الصبا والشباب الى موهبة فى الضحك لا تحدها حدود ، ولم تكن امه فحسب هى التى تدعو له بطول العمر والنجاح بل كل من رآه أرسل فى اعقابه الدعوات ، حتى لقد اقتنعنا جميعا بأن دعوات الناس وحبهم له هى التى منحته التوفيق والتقدم ، لقد حصل على أعلى الشهادات ، تلك التى يسمونها بكالريوس ، وهى فيما يبدو شهادة عاليه جدا جدا فى أمور التجارة ومسك الدفاتر وما أشبه ، وكان أبى فى الواقع يريده دكتورا ، ولكن جعفر الاستاذ كان يعشمه بأنه سوف يأخذ الدكتوراه بالفعل ولكن فى علم التجارة أيضا ، فيضحك أبى ويوصيه أنْ حصل على الدكتوراه أن يعالج التجارة فى بلادنا من أمراض الشره والاستسلاب والنهب ، فبدوره يضحك جعفر الاستاذ ويقول لأبيه أن هذه الأمراض فى الناس لا فى التجارة ، مع ذلك ظل أبى فى ولع شديد يناديه بالدكتور ، والناس ينساقون وراءه بنفس الولع ، حتى لقد اختفى اسم جعفر تماما وحل محله اسم الدكتور . على أن الدكتور حين توظف فى العاصمة بدأت زياراته لنا تقل ، ومدده يضمحل ، وقيل أنه الزواج قد شغله . ثم انفصل عنا تماما ، وقيل أنهم الأولاد . وبدأ وجه أمى يزداد ذبولا وقلب أبى يزداد جفافا ..

فى ليلة تمدد أبى فوق المصطبة واشتكى من صدره وضيق تنفسه ، وراح يسأل عن الدكتور . وكنا قد أرسلنا الى المدينة العاصمة عددا من البرقيات ردت كلها الينا تفيد عدم الاستدلال على العنوان .. ولم نكن

نبلغ أبي عن ذلك . ومع الفجر كف صدره عن الخرخشة نهائيا ، وصوتت أمي وولولت كشابة فى العشرين ، وبكيت أنا كما لم أبك من قبل ، ليس للفراق فحسب بل لوحدتى القاسية فى كل شيء ابتداء من تسبيل عينيه حتى فحت القبر ذلك أن ابناء عمومتى وخئولتى كانوا قد سافروا الى بلاد العرب بحثا عن الثراء ، وكنت قد رميت طوبة الجميع منذ أن مات الاعزاء منهم فى الحروب الثلاث المشئومة .

ابدا لم نصبح وحدنا أمى وأنا ، رغم فراغ الخزنة . ذلك أن ليل الخزنة والذبالة المرمدة الشاحبة كانا يستحضران كل الغائبين استحضارا تاما كل فى مكانه بشخصه ، فالواقع أن شخصياتنا جميعا من غاب منا ومن قد حضر ليست فقط موجودة بالذكريات بل هى محفورة فى الخزنة كما انحفرت عيدان الحصيرة على جسده إن رائحته لاتزال فى الخزنة ولن تنمحى ابدا عنها مثلما أن رائحة الخزنة لن تفارق أنفه أبد الدهر حتى لو عاش فى بلاد واق الواق ، هذا ما أنا واثق منه على الأقل ، ومع ذلك لست أعرف هل لهذه الرائحة لم يعد أخى جعفر كل هذه السنين ؟ ربما كان استقرار رائحة الخزنة فى أنفه قد عيشه فى إحساس سرمدى بأنه لم يغادرها بعد ولهذا لم توحشه ولم يوحشه سكانها وهم بقايا لحمه ، وكنت أسمع من بضعة أيام رجلا يتحدث فى الراديو كان صوته يشبه الى حد كبير جدا صوت جعفر ، وكان يحكى عن اخوة له اسماؤهم تشبه اسماءنا ، وكانت عين امى تشرئب نحو الراديو ووجهها يرتعش وقلبى يتابعها بالخفقان وقد تيقنا معا أن المتحدث هو جعفر ، وقال من يشبه جعفر ان له ثلاثة اخوة استشهدوا فى الدفاع عن البلاد فى ثلاثة عقود من الزمن ، وانتفضت امى واقفه صارخة « هوه ، هو ابنى جعفر اللى بيتكلم فى البتاع دهوه » ، ضحكت كالعبيط ضحكة صاعقة لا أدرى إن كنت أقصد بها الفرح أم الاستنكار ، ولكنى كنت الى التصديق أميل اذ ان المتحدث حدد أسماء اخوته الثلاثة الشهداء فاذا هم بدر

وحسن وفل .. فالمتحدث اذن هو جعفر بذات نفسه ، لكن المذيعة حين سألته عن ذكرياته فى القرية وبدأ يجيب بدأنا نتوه معه ولا نتعرف عليه ، وبدا خيط الحديث يشرد منا ، ثم اقتحمت الحديث أغنية راقصة كأنها تنغز فى صدورنا بالابر ، وتربعت امى وقالت بشكل حاسم : « مش هوه .. مادام الخزنه ما وردتش فى كلامه يبقى مش هوه » ، وقلت : « نعم ياأمى هذا صحيح مائه فى المائه » . كل ما كان هنالك من فرق لم يعرفه جعفر حتى الان أن ذبالة الضوء لم تعد هذه المرة تصدر من مصباح الغاز نمره خمسة بل من مصباح كهربى صغير بعد أن دخلت الكهرباء قريتنا ، لكن الكهرباء لم تستطع محو ذبالة الضوء المرمدة من عينى التى يبدو أنها استقرت فيهما الى غير محو ابدا ، وثمة صورة جديدة علقت بجوار صورة الرئيس السادات كلما نظرت اليها تذكرت كيف مات صاحب الجلباب والطاقية والعصا فى برجه الحصين ، وثمة راديو صغير صنعت له صندوقا خشبيا كبيرا ووضعته فوق رف الدولاب ، تفتحه امى على محطة القرآن الكريم ليل نهار . وكنت انظر فى كتب ابى الصفراء فلا أجد ثمة فرق يذكر بين ما تنطقه سطورها وما ينطقه الراديو . وقد انعش الراديو امى لسنوات قليلة لكنها سرعان ما سئمته وأخلدت لنوم طويل متقطع تتخلله الاهات واللهاث والآلام المبرحه ، الى أن فاضت روحها الكريم وهى ترسل الدعوات لاخى الدكتور الذى لعله قد بات دكتورا بالفعل فأقول لها : وانا ياأم اتغفليننى ؟ فتبتسم ابتسامة واهنة وتقول : « لانه فى الغربه لا نعرف عنه شيئا » ..

دفنتها جوار أبنائها وزوجها ، وعدت الى الخزنة كفرع يابس تتخطفه الرياح .

* * *

المعادى — ١٩٨٢

الفهرست

رقم الايداع
٨٦/٥٥١٧

دار المدينة المنورة للطبع والنشر ١١٤ – شارع مجلس الشعب

الوتد

تجربة جديدة في القص، تعتمد اللغة اليومية كمحور للحركة، وصانع للمناخ، حيث يطيح الكاتب بلغة الأدب التي أصبحت مؤسسة ذات وجود طاغ ومسيطر ومستقل عن الكتاب والجمهور، لينشئ لغة حية مستمدة من روح المكان - القرية المصرية - تؤكد أن الأدب المعاصر لا يكون إلا بلغة معاصرة.

ويؤكد تعاقب الأجيال داخل الرباعية حركة الحياة، لا نهايتها، فيصبح الموت لازمة لاستمرارها وطقساً من طقوسها.

وشخوص الرباعية الرئيسية هي: المرأة / الأم.. والطفل الراوية.. مقابلة يؤكد بها الكاتب تلاحم الماضي والحاضر والمستقبل في الحياة المصرية.

736
31wa
05334448

دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع
القاهرة - باريس
القاهرة: ش هشام لبيب - رقم ٢٥ - ٤٢
مدينة نصر - المنطقة الثامنة

في الخارج ٢ دولارا أو ما يعادلها

الغلاف والخطوط: عصام حسيب